مذكرات

ميغيل دي أونامُونو

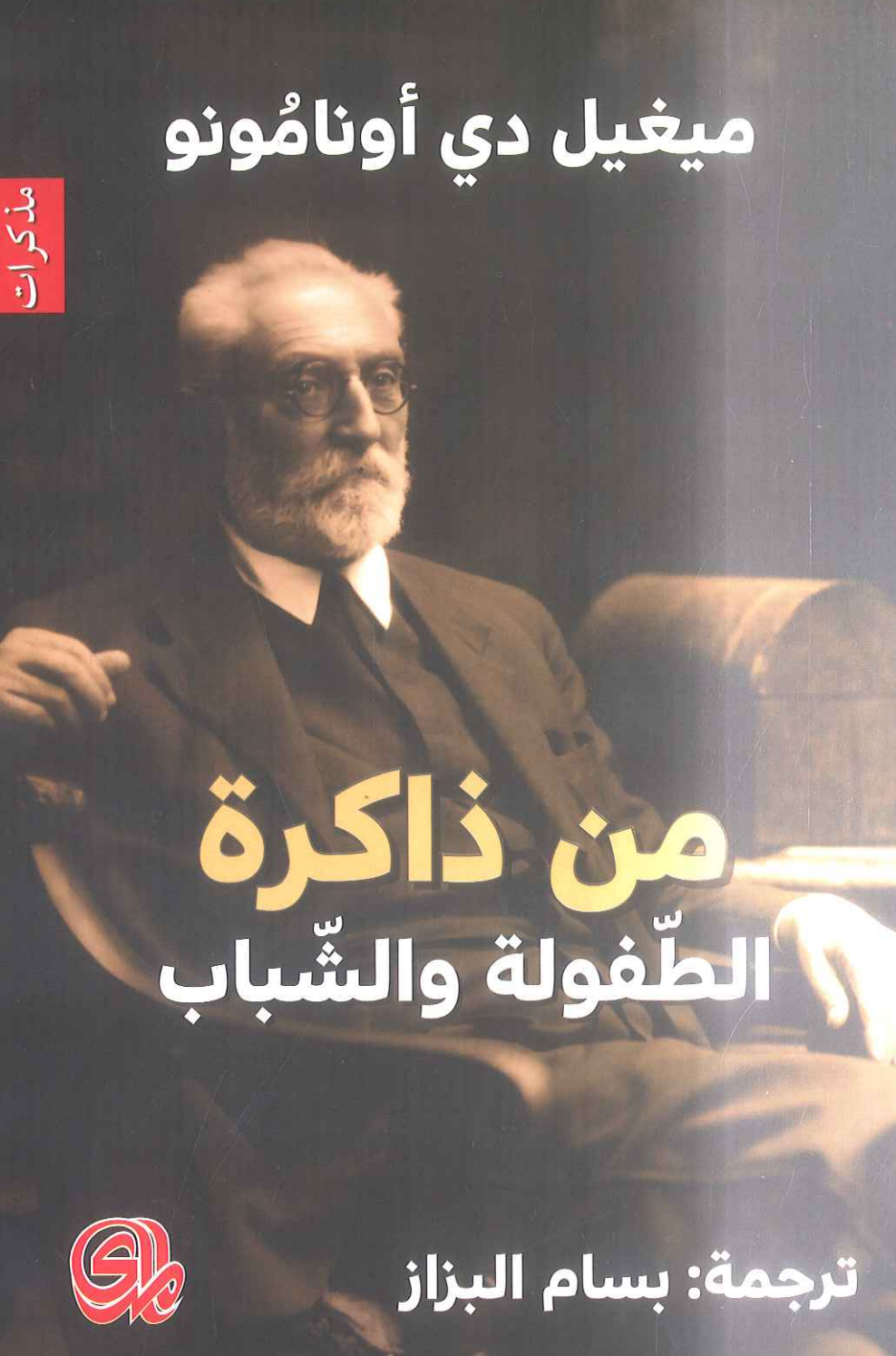

من ذاكرة
الطّفولة والشّباب

ترجمة: بسام البزاز

من ذاكرة
الطّفولة والشّباب

مذكرات

Author: **Miguel de Unamuno**

Title: **From the memory of childhood and youth**

Translate: **Bassam Al-Bazzaz**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2018**

Copyright © **Al-Mada**

اسم المؤلف: ميغيل دي أونامُونو

عنوان الكتاب: من ذاكرة الطّفولة والشّباب

ترجمة: بسّام البزّاز

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999

+ 964 (0) 770 8080 800

+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017

+ 961 175 2616

+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276

+ 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

ميغيل دي أونامُونو

من ذاكرة الطّفولة والشّباب

ترجمة : بسّام البزّاز

عمّن نتكلّم؟

نتكلّم عن ميغيل دي أونامونو Miguel de Unamuno (١٨٦٤-١٩٣٦).

أديب ومفكّر وفيلسوف إسباني من بلاد الباسك.

أحدُ أعلام الفكر الإسباني بين الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين وإن تعدّى أثره وفكره حدود الزمان تلك.

هو أحد أعضاء ما عرف بجيل ٩٨، تلك المجموعة من المفكرين والأدباء الإسبان الذين هالهم، كما هال الإسبان جميعاً، أن تفقد إسبانيا هيبتها وتطرد على أيدي الأمريكان من آخر مستعمراتها في كوبا والفلبين متعثرة في ثوب الخزي ومسربلة سربال الهوان، منكسة الرايات مهزومة في جيشها وكبريائها وكرامتها. كانت تلك هي «النكبة» عند الإسبان. فكان دور الثقافة والمثقفين آنذاك هو تشخيص الحالة ومعرفة الداء والبحث عن العلاج والدواء.

ولد في بلباو Bilbao المدينة الباسكيّة المهمّة. وتوفي في سالامنكا، المدينة القشتالية التاريخيّة.

تعاطى شتّى فنون الكتابة: رواية وشعراً ومقالة ومسرحاً، وخاض غمار السياسة، فانتخب نائباً عن التجمع الجمهوري الاشتراكي، وكان هو من قرأ بيان إعلان الجمهورية الثانية في الرابع عشر من نيسان عام ١٩٣١ من على شرفة بناية البلدية في سالامنكا.

انتخب رئيساً مدى الحياة لجامعة سالامنكا العريقة حتّى أقيل من منصبه ذاك عام ١٩٣٦ بأمر من فرانكو، الذي كانت قواته قد انطلقت إلى أرجاء البلاد لإسقاط مؤسسات الجمهورية ومطاردة رجالاتها ورموزها في ما عرف بالحرب الأهلية، التي بدأت في السابع عشر من تموز من عام ١٩٣٦ وانتهت بعد ذلك الوقت بثلاث سنين.

تروى في هذا السياق المواجهة الكلامية والفكرية التي دارت في حرم جامعة سالامنكا في الثاني عشر من أكتوبر من عام ١٩٣٦، ذكرى اكتشاف أمريكا، بين الحاكم العسكري في سالامنكا (الجنرال ميّان- أستراي) ورئيس الجامعة آنذاك (ميغيل دي أونامونو): فقد حمل العسكري على الثقافة والمثقفين وأنهى خطبته بهتافه الشهير: «الموت للمثقفين. يعيش الموت»، فردّ أونامونو بعبارته الشهيرة موجهاً كلامه للجنرال: «ستنتصرون لكنّكم لن تقنعوا أحداً».

عمّ يتكلّم؟

لن ننتظر بالطبع من كتاب عنوانه «ذكريات الطفولة والشباب» أن يحدثنا مؤلفه فيه عن تجارب ناضجة ولا عن خبرة مكتملة وهو لم يتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره.

فعمّ يتكلّم أونامونو إذن؟

مثل أونامونو في هذه «الذكريات» مثل أيّ منّا وهو يتأمّل طفولته من شاهق عمره في الخمسين أو الستين أو السبعين.

ليس ما سنقرأ استعراضاً لتجارب واستخلاصاً لدروس وعبر، بل هو حكايات طفل صغير أو صبي غرير تنتهي بخلاصة صاغها هو نفسه وقد صار رجلاً ناضجاً ومفكراً متأمّلاً في هذه الحياة.

هو حديث عن بداية البدايات. عن أصول الأشياء. عن جذور الميول والأهواء.

وفي البدايات ترسم النهايات.

في الكتاب انطباعات أوّلية وصور مبكّرة عن تقاليد اجتماعية ونظم تعليميّة ومبادئ تربوية وتصرفات طفولية ونزعات قوميّة وروح وطنية. كلّها في شكلها الخام وصورتها المبكّرة الأولية.

هو يستمدها من خزين ذاكرته ويعرضها عرضاً شيّقاً قبل أن ينتقل إلى زمانه الذي هو فيه ليصوغ الدرس والرؤية صياغة الرجل المفكّر والأكاديمي المجرّب والإنسان الذي عرك الحياة وعركته.

كثير من الطفولة ومن سيكولوجيتها ونشاطها وميولها وقليل من العظة والدرس، لأنّ أونامونو كما قال هو لا يؤمن بالدروس التي تنزل من فوق، بل يؤمن بالدروس التي نتعلّمها على قارعة الطريق وفي وسط الزحمة.

لذلك فالكتاب مهم. ولذلك فالعرض شيّق.

كم منّا يذكر ما كتب طه حسين عن نفسه في الجزأين الأخيرين من «الأيام»؟

وكم منّا يذكر ويردد ما كتبه عن نفسه في الجزء الأول؟

ما علق في أذهاننا من «أيّام» طه حسين هو طفولته. بيته. قريته. الريف. الكتّاب. حفظ القرآن. أولى سفراته إلى القاهرة للدراسة في الأزهر.

هذا هو ما يشوقنا. لأنّ هذا هو ما لا نعرفه عنه وما لم نسمع به من أحد. فهو وحده من يعرف تفاصيل طفولته ودقائق صباه وفتوته. وهو وحده من يستطيع أن يحدثنا به، لأنّه لم يكن آنذاك شيئاً مذكوراً.

أمّا حين صار «طه حسين». حين أصبح أستاذاً وعميداً ووزيراً فما عدنا في حاجة إلى حديثه لنا عن نفسه، فقد انتقل إلى فضاء الشهرة والبروز وصار ضمن منطقة المعرفة العامة الشائعة المبذولة.

هذا هو الفرق بين مذكرات الطفل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً والرجل الذي صار يملأ الدنيا ويشغل الناس.

في مقدورنا أن نجد أونامونو الرجل في كل مكان.

أمّا أونامونو الطفل فلا نجده إلا في ذاكرة أونامونو الرجل. لأنّ الطفولة والصبا والشباب كما قلنا هي مراحل فيها من الحميمية والخصوصية ما لا نبلغه إلا بمعونةٍ ممن عاشها ولا نصل إليها إلا بتوجيهٍ ممن سار في دروبها.

دونكم أونامونو الرجل، الذي يتذكّر ويكتب عن أونامونو إبّان طفولته وصباه وشبابه.

أرجو أن يروق لكم.

القسم الأوّل

-١-

لا أذكرُ ولادتي بالطبع، مع ذلك فالولادة، وهي حدثٌ مركزيّ في الماضي، كما هو الموتُ في المستقبل، تُعرف بالتوثيق وبالبديهة، وأيّ خيار لدينا، ونحن نعدمُ الخبر الموثّق والمباشر عن أهمّ فصل من فصول حياتنا، غير الركون إلى شهادة الآخرين؟ مع ذلك فإنّ لي في كلّ هذا سلوة وعزاءً، لأنّني أفترض، والحال هذه، أنّني لن أحظى مستقبلاً بأيّ خبر موثق ومباشر عن موتي.

لا أذكر ولادتي، لكنّي أعرف، بالرواية وبالأوراق الرسمية، أنني ولدتُ في بلباو في التاسع والعشرين من شهر أيلول من عام ١٨٦٤.

توفي والدي عام ١٨٧٠ ولمّا أتمّ السادسة. أكادُ لا أتذكره ولا أدري إن كانت الصورة التي أحتفظ بها له في ذهني هي من تأثير صوره التي كانت تشيع الحياة في جدران البيت. مع ذلك فأنا أذكرُ لحظة معينة تطفو فيها ذكراه المطموسة من بين ضباب سنوات عمري الماضية. كانت صالة البيت مكاناً يكاد يكون مقدساً، لا يدخله الأطفال متى شاؤوا وأرادوا: كنبة وكراسيّ وكرة من قطع صغيرة من المرايا يشاهد الناظر إليها نفسه فيها صغيراً كبير الرأس مضحكاً. تسللتُ ذات يوم إلى الصالة وكان أبي جالساً يتحدث بالفرنسيّة مع رجل فرنسي، وإنّي لأستنتج فعلَ اللغة وسحرها الذي تكشّف آنذاك أمامي من أنّني لا أذكر أبي إلّا في تلك اللحظة، وهو على كرسيه، مقابل (مسيو ليغورغ)، يحادثه بلغة غامضة أجهلها. فالرجال يستطيعون إذن التفاهم بطريقة

أخرى مختلفة عن طريقتنا! كان سرّ اللغة يشدّ انتباهي وأنا دون السادسة؛ إنّه الميل إلى الأشياء والشغف بها!

تلك هي أقدم ذكرياتي العائليّة. أمّا ذكرياتي التاريخيّة فلم أتلقها عن طريق عائلتي بل عن طريق الفن.

في ١٨٦٨، حين أتممتُ الرابعة، قامت ثورة أيلول[١]، ولا أذكر عن صداها في بلباو شيئاً رأيتُه أو سمعتُ به. ولكن لم يمضِ على وقوع الثورة وقت طويل حتّى أتوا إلى مدينتي بمعرض لتماثيل معمولة من الشمع تصوّر إعدام إمبراطور المكسيك (مكسمليانو) واثنين من جنرالاته: (ميرامون) و(ميخيّا)، قبل ذلك التاريخ بعام واحد[٢]. استرعت مخيلتي، بأدنى قدر من الفن وأعلى درجة من الطفولة، مأساة (كيريتارو) التي صوّرتها تماثيل الشمع تلك، وما زلتُ أتخيّل مشهد الإمبراطور البائس جاثياً بلحيته الطويلة وعينيه المعصوبتين. تذكرته مرات عديدة وأنا أقرأ قصيدة (كاردوتشي)[٣] «ميرامار»، التي أحفظها عن ظهر قلب والتي ترجمتها شعراً إلى القشتاليّة[٤].

١- حركة عسكرية أطاحت بالملكة إيزابيل الثانية وبدأ عهد ديموقراطيّ دام ست سنوات وانتهى بعودة آل بوربون إلى عرش إسبانيا في شخص ألفونسو الثاني عشر.

٢- Maximiliano هو إمبراطور المكسيك وقد اتهم بالخيانة العظمى وأعدم في (كيريتارو) مع اثنين من جنرالاته (Miramón وMejía) في حزيران من عام ١٨٦٧.

٣- Giosue Carducci (١٨٣٥-١٩٠٧). أول من نال جائزة نوبل من شعراء إيطاليا. في قصيدته (ميرامار) يصف مأساة إمبراطور المكسيك المذكور.

٤- اللغة القشتاليّة EL CASTELLANO هي لغة مملكة قشتالة CASTILLA الشماليّة. لقد انتشرت هذه اللغة مع تمدد تلك المملكة القديمة سياسيّاً وعسكريّاً منذ القرن الحادي عشر لتصبح لغة إسبانيا كلها. المؤلف يستخدم كلمة «قشتالية» بدلاً من «إسبانية» لدواعٍ قوميّة، فهو باسكي قوميّ، وقد اعتاد أمثاله أن يسمّوا اللغة الإسبانية بالقشتالية وهي صفةٌ تشير إلى التاريخ وإلى مهد اللغة وليس لها البعد العام الذي تحمله صفة «إسبانية» والذي يدخل لغاتهم القومية ضمن دائرة الهيمنة اللغوية والسياسية لإسبانيا.

لكنّ ذكرياتي الحقيقيّة تبدأ في المدرسة، وهي حالُ أيّ طفل ولد في المدينة ونشأ بين شوارعها.

-٢-

لم تكن المدرسة التي أخذوني إليها قد تخلّت بعدُ عن الرداء المدرسي الطويل. كانت واحدة من أشهر مدارس المدينة، ولا بدّ من تمييزها عن سواها من مدارس التعليم المجاني، وهي حال عموم مدارس المدينة، إلى حيث يذهب صبيان الشوارع، الذين يهربون من قاعات الدرس ليسبحوا في قناة (لوس كانيوس)، والذين كانوا ينبزوننا بـ «أبناء المدينة» وينادون والديهم بـ «أبي» و«أمي»، وليس كما اعتدنا نحن مناداتهما بـ «بابا» و«ماما».

كان من علّمني الحروفَ الأولى رجلاً عجوزاً تضوعُ منه رائحة البخور والكافور. تغطي رأسه برنيطة تتدلّى منها كرةٌ من الصوف يضعها على أحد جانبي رأسه. كان عظيم الأنف، يرتدي سترة طويلة لها جيبان كبيران – بحجم جيوب أصحاب السلطة–، ويحشو أذنيه بقطعة من القطن، ويحمل قصبة طويلة أورثته لقب «مربي الديوك الرومية». أمّا الديوكُ الرومية فكنّاها نحن بالطبع، ويا لنا من ديوك!

لذلك المعلّم الأوّل ساعة عدالة، يحين وقتها فينطلق هو ليوزّع علينا الضربَ توزيعاً وينثره فوقنا نثراً، فينزل وابل قصبته منّا وعلينا منزلة البركة. كان يحتفظ بمجموعة قصبه اليابس المدبوغ والمقشور في ركن صغير من أركان حجرة مظلمة لا يعرف النورُ له طريقاً فيها. حتّى إذا استبدّ به الغضبُ وفاض بصبره الكيل أغمض عينيه حرصاً على

العدالة وانطلق يوزّع علينا الضرب، قصبة هنا وأخرى هناك، إلى الأمام وإلى اليمين وإلى اليسار، لتصيب القصبة من تصيب ولتقع على من تقع، ثمّ ليحلّ السلام مع الجميع ويستتبّ الأمن في الربوع. وما كان أشبه ذلك الحدث بالحفلة، إذ يسارع الجميع إلى الانبطاح والاختباء تحت المصطبات طلباً لملاذ يعصمه من وابل الضرب.

ذلك هو ما كان يحدث حين يكون الحسابُ جماعيّاً والعقاب شاملاً؛ أمّا إذا كان العقاب فرديّاً، مدفوعاً بخطأ جسيم وخطيئة فادحة، فأداته أسلة من أسل الهند، عصا غليظة وليست مجوفة كالقصبة، تئزّ أزّاً وهي تنفض الغبار عن بدن الآثم الجاني.

ويا للرهبة التي تخيّم على مسرح تنفيذ الحكم حين تكون العقوبة علنيّة!

ما أنسى لا أنسى ما وقع للفتى نون. حضرتْ أمّهُ ذاتَ صباح، وشكتْ للمُعلم، بين تأوّه وألم، أنّ ابنها معجونٌ بماء الشياطين: فلا صلاحَ يرتجى منه ولا تقويم يؤمّل فيه، فكلّ شيء يثيره، يستبدُّ به الغضبُ ويضربُ الخادمة، حتّى إنّها، وهي أمّهُ، ملّتْ معاقبته بالنوم من دون عشاء، فما عاد ذلك يردعه، بل لقد وصل به الأمر في الليلة البارحة أنّه ضربها بالصحن! ضرب أمّه... والدته. ومع أنّني لا أذكرُ شيئاً ممّا سأورده، فأنا أظنّ أنّ في مقدوري أن أضيفَ أنّها قالت إنّ الأبَ صفرٌ على الشمال، لأنّه ينفي عن نفسه كلّ مسؤولية عن تربية الصبي، فحسبه أن يذهب إلى عمله، ثمّ إنّه لا يحسن التربية ويرى في كلّ ما يفعله ولده صحيحاً، بل لقد اصطفّ إلى جنبه غير مرّة وأعطاه الحق. أكررُ أنّني لا أذكرُ أني سمعتُ هذا، بل هي إضافة منّي، إذ لا ضير في أن نرخّص للمؤرخ أن يستعين بافتراضات مشروعة، مبنيّة على قوانين احتمال الحدوث، ليملأ بها الفراغات التي قد يصادفها أثناء سرده التاريخي.

ولا شكّ أنّ كلام الأم انتهى بما يشبه قولنا: «لا أدري، لا أدري أين سينتهي بنا الأمر، لكنّي على يقين من أنّه لن ينتهي بنا إلى ما يسرّ... ولئن لم يقوّم اعوجاجُ هذا الفتى، فمصيرُه أدهى وأمرّ». قالت هذا الكلام أمام الصبي وفي حضوره قاصدة أن يسمع ما تقول، بينما راح هو ينظر إلى الأرض ويداه في جيبيه لتكونا في حرزٍ من البرد وحفظٍ من الضرب.

وانبرى المعلّم للتأديب.

أذكرُ ما حدثَ وكأنّه حدث صباحَ أمس. أنهى المعلمُ الدرسَ قبلَ موعده بقليل، وأقمنا الصلاة الوردية بورع ظاهر، لأننا خمّنّا حدوث احتفالية غير مألوفة بعدها. وسرعان ما وجدنا أنفسنا في قاعة صغار التلاميذ، جالسين على مصاطب طويلة. جلسَ المُعلمُ تحت كريّات نُظمتْ في أسلاك لتعليم الحساب. خيّم الصمتُ على المكان، فما عاد يسمع فيه طنينِ ذبابة. ونادى المُعلمُ على المجرم فحبسنا أنفاسنا. تقدّم نون متجهماً واجتاز سهام نظراتنا المصوّبة إليه من دون أن يذرف دمعة واحدة. نطق المعلم، ولا أقول «قال»، بكلمات مسّت قلوبنا، لأنّ الكلمات في مثل هذه اللحظات الدقيقة من حياة البشر والشعوب تنطق ولا تقال. فماذا بدر من الجاني؟ لقد قصّر في حقّ أمّه! لم يحسن إلى والدته! بل لقد رماها بالصحن! بكى بعضهم وفي حلقه غصّة، ومنعت الغصّة آخرين من البكاء. أمره أوّلاً بالانحناء، ثمّ بوضع رأسه في حجره، في حجر المعلم؛ وطلب أن يؤتى له بنعل من تلك التي يلبسها الفلاحون، نعل من الخيش والقنّب، وأمرنا بأن نضرب نوناً بالنعل على مؤخرته، الواحد بعد الآخر. تتابع الجلادون لتنفيذ الأمر. كان ضرب بعضنا خفيفاً هيّناً، برداً وسلاماً! فيه ضحك وهزل؛ لكن ثمّة من أبدى من القسوة ما يبديه مجندون أمروا بإعدام زميل لهم رمياً بالرصاص. مع ذلك فقد كان معظمنا يرى أنّ المعاقب،

وهو في نهاية الأمر واحد منّا، يستحقّ الرأفة، على الرغم من إقرارنا بأنّ الجناية كريهة مذمومة. زاغ أحدهم معتذراً بقضاء حاجة لا تقبل التأجيل، ليتجنّب تنفيذ الحكم في حق صديقه، واتخذ من المرحاض ملاذاً ومأوى. أمّا التلميذ سين فقد ضرب نوناً وهو يزمّ فمه ضرب من يشفي غليلاً أو يأخذ بثأر، فأثار بفعله غضبنا، إذ رأينا في ما فعل انتقاماً رخيصاً، لأنّ من المعيب الشائن أن يتحول العقاب إلى انتقام. وخمّنّا أنّ نوناً أضمر شرّاً وهو ينظر من بين ساقيه إلى الآخر: ستقع ذات مرّة بين يدي! وهكذا كان، إذ دفع المنتقم ثمن فعلته غالياً في وقت لاحق، فما من موعد إلّا يأزف وما من دين إلّا يستحق. حين رفع المعاقب وجهه، وقد احمرّ من طول ما مكث حيث مكث، هتف المعلّم متألّماً: أترون؟ ما من أثر لدمع! ما من علامة لحزن! إنّه ولد مجبول من حجر. وانصرف نون كما وصل بعينين ناشفتين.

لا شكّ في أنّ العقاب الذي يسعى إلى أن يكون عبرة ودرساً وأمثولة هو الأقل مردوداً من حيث العبرة والدرس والأمثولة، لأنّ فيه الكثير من المسرح.

كانت المدرسة، وهي بيتٌ كبيرٌ عتيقٌ هدم ليقام على أرضه بيت جديد، تقع عند نهاية درج قديم يؤدي إلى باحة صغيرة؛ درج تآكلت بسطاته وفتكت الأرضة بخشبه، أمّا دربزينه اللمّاع العريض فقد اسودّ من كثرة ما مرّت عليه الأيدي والسيقان. كم كان ممتعاً النزول من على الدرج، لا سيراً عليه درجةً درجة، بل ركوباً على دربزينه وانزلاقاً من فوقه من دون أن تمسّ أقدامنا الأرض!

كانت تلك المدرسة عليّة كبيرة، لها منافذها إلى السطح وغرفة واسعة ينهض في وسطها مستوقد على شكل عمود مربّع، ولها جرسها الذي يتدلى مشدوداً بحبل رقيق يشدّهُ العمال والخدم تارة لدعوتنا ونشدّه نحن تارة أخرى لنقطعه.

هناك تعلّمنا أشياء كثيرة، كثيرة جدّاً... من بينها آداب السلوك. فلا بدّ عند الدخول من التوقف أوّلاً في الباب ثم الإمساك بحافتيه قبل إلقاء التحيّة: «صباح الخير. كيفَ حالُ حضرتكَ؟». نقول هذا مرتلين ومنشدين ومشددين كثيراً على نهايات الكلمات، ثمّ نقف بانتظار الردّ: «بخير. وَحضرَتكَ؟»، فنردّ نحن: «بخير لخدمة حضرتك!». عندها يمكننا الدخول. لقد تطوّرت هذه التحية التقليدية شيئاً فشيئاً، كما هي حال كلّ الطقوس وحال كلّ شيء، إلى أن أصبحت شريطاً سريعاً وقويّاً لا يسمع منه إلّا حروف مقطّعة: وَرَتكَ، وَرَتكَ، وَرَتكَ!

كانت ثمة أيام للزيارات: يخرج عريفُ الصفّ ونظلّ نحن ننتظره. يأخذ قبعة من الخارج ثم يعود. يدقّ على الباب فيذهب المعلّم ليفتح له، وما أن يدخل بهيئة الضيف الزائر، حاملاً قبعته في يده، حتى ننهض جميعاً ونبادره بالتحية في جوقة وبصوت واحد. يدعونا للجلوس بإشارة من يده ويواصل الزيارة بوقار يثير الإعجاب.

أمّا حين تكون الزيارة حقيقيّة، حين يأتي ضيف حقيقي لزيارة المدرسة، فإنّ المعلّم ينادي على (بيثنته)، وهو واحد من تلامذته المفضلين، ويعرضه كما تُعرض الحشرة الغريبة. كان (بيثنته) هذا يشرب عصير الصّبار، ظاهرة غريبة نادرة، وحالة تثير الإعجاب! لم تكن تلك النادرة الوحيدة التي تروى عن (بيثنته)، فقد انخلعت ذراعه من منطقة الكتف ثلاث أو أربع مرات وكأنّ شيئاً لم يكن. لا أدري ما العلاقة بين شغفه بعصير الصبار وقابلية كتفه على الخلع. لا بدّ من علاقة.

ومع انتهاء الدرس تنحلّ عرى النظام، فينقلبُ صخباً يحلّق بين غبار العلّيّة. تستردّ الأصوات حريتها وترتفع سحابة الغبار. كنا نصرخ حتى تبحّ أصواتنا، ونفاجئ العجوز المسكين وقد تخلّى عن عصاه؛ يتسلّق أحد الصغار عليه، يبحث في جيوبه عن حبات من الكافور أو الحلوى،

ويختبئ آخرون تحت سترته السوداء الواسعة وهم ينشدون: «دون إيخينيو... يا حامي... الأنفس... التي تلوذ... بحبّك الأبوي». فينقلب المسكينُ عنقوداً يتدلى منه الفتية الصغار النضرون الذين يتدفقون حيوية بينما يستحمّ هو بأريج الطفولة. علمنا الجهات الأربع وعلّمنا كيف نحددُ مكاننا في العالم: «من أين تشرق الشمس؟»، فنردّ نحن: «من هناك»؛ ثمّ يضع تلك الجهة على يميننا ونيمّم وجوهنا شطر جهة الشمال، ثمّ نهتف، ونحن نؤشر بأذرعنا: «شمال!، جنوب!، شرق!، غرب!». كان هو من أجرى من عينيّ أولى دموع الفن؛ فقد حطّم بيده يديّ وأنا أرسم تلك الخطوط التي أنتجت هذه الحروف؛ لقد تفتّحت عيناي على الناس وعلى الحياة في تلك المدرسة.

رجل عجوزٌ خرف، يعيش في قرية زوجته الأخيرة، وقد أتى من محافظة نائية، زاره أحد تلامذته القدماء قبيل وفاته، فعرفه العجوز وتعرّف عليه، على كثرة من مرّ منهم من تحت عصاه! وضع يده على رأسه كما كان يفعل آباء الكتاب المقدس الأولون، وربّما تذكّر صورة من صور كتب القراءة، ثمّ قبّله، بحث في جيبه عن قطعة حلوى وبكى، بكى المسكين وهو يتذكّر تلك العلّيّة الواسعة المغبرّة التي تعجّ بالأطفال وتضجّ بصراخهم. العلّيّة التي طالما خفّف ثقلُ الصبيان فيها، وهم يتعلّقون بركبتيه ويطلبون حمى سترته، من وطأة سنوات عمره. لقد مرّ نصف سكان بلباو في طفولتهم من تحت عصا دون (إيخينيو)، وإن لم يرزقه الربّ بولد من أيّة واحدة من نسائه. فبوركت ذكراه!

-٣-

من المرحلة الأولى من حياتي، حين كنتُ ما زلتُ في صفّ التلامذة الصغار، أتذكّر نظرة الاحترام التي كنّا نخصّ بها كبار الطلاب ممّن يوشكون على بلوغ عتبة الثانويّة، ولا سيّما نظرتنا إلى أكبرهم سنّاً، (كركامو)، الذي تقبع صورته الآن في ركن ضبابيّ من ذاكرتي، مختلطة مع صور كلّ ما هو أهمّ وأقوى وأخطر وأشدّ سطوة ونفوذاً. طبعاً! كان أكبر التلاميذ سنّاً، وكان مُنى نفس أيّ منّا أن يحظى بحمايته. لقد اختفى (كركامو) من بلباو ولم نعرف عنه شيئاً، مع ذلك لم تفلح أيّة حقيقة لاحقة من أن تحطّ من قدر ذكراه الغائبة.

وما كان يكسر رتابة الدرس إلّا خروجنا منتصف العصر بعد إشارة تعطى لنا لشرب الماء في ممرّ مشجب الطاقيّات، حيث دلو الماء. كنّا نصطفّ ونشرب الماء الواحد بعد الآخر في كوب أصاب الصدأ نواحيَ متعددة من صفيحه. وما كان أمام آخر الشاربين غير أن يعبّ وشلة الماء المخلوطة باللعاب... بينما يدلي أحد الظرفاء من حين لآخر بطاقيته، وربّما بما هو أسوأ منها، في الدلو. خنازير! بل أكثر من خنازير!

في أيام معينة، أيام السبت ربّما، كانوا يعلموننا الموسيقى فلا نفلح في تعلّمها. يرسمُ دون إيخينيو السلّم الموسيقي على السبّورة مع النوتات ويضبط الإيقاع بقصبته التي لا تفارق يده، ونغنّي جميعاً في

جوقة. وينتهي الدرس بنشيد «التطهيريين»[٥]. ويلتهب حماسُ المعلّم ويتجاوز حماسَنا، ونحن نجأر بنشيد «ينطلق صوت النفير مدوّياً...»، فيبدأ بهزّ قصبته، إذ يقال إنّه كان الموسيقي الأول في إحدى كتائب جيش كارلوس الخامس المطالب بعرش إسبانيا[٦].

يا لقداسة الموسيقى! ويا لطهرها! ويا لحلاوتها!

أمّا عن التسلية في تلك المدرسة... عن المتعة واللهو فيها، فحدّث ولا حرج! ليس لأبناء الغرف الدافئة، ممن نشؤوا في بيت صغير، في رعاية مربية أو راهب فرنسي، أن يعرفوا معنى الحياة، إن كان ثمّة من يعرف معناها. فالطبع والعريكة يتكوّنان ويتشكّلان من تصادم الانفعالات والعواطف الطفوليّة. لذلك أقول في نفسي، حين أرى صبيين صغيرين يتبادلان اللكمات، بعيدين عمّن قد يمنع تلاحمهما أو يفضّ الاشتباك بينهما: «نعم. هكذا يتكونان؛ وهكذا يتعلّمان الصراع من أجل الحياة». أمّا الآخرون، أمّا الأطفال الذين لم يكسر لهم أنف ولم يشجّ لهم رأس، فنادراً ما يتعلمون أنّ هناك إرادة تقف في وجه إرادتهم وفي الضدّ منها. وما هي بالإرادة الصادرة من أعلى، كإرادة الأب أو المعلّم، التي تعلّمنا توجيه إرادتنا وقيادتها وحسن سياستها، بل هي إرادة المقابل، إرادة الصبي الآخر الذي يريدُ غير ما أريده ويبتغي خلاف ما أبتغيه. أمّا الإرادة الصادرة من أعلى فتجعل منّا متسترين متخفين، تجعل منّا طغاة في مسوح عبيد.

وماذا عن التسلية؟ هل كنّا نجد المتعة والتسلية في المدرسة؟ لا أظنّ أنني استمتعتُ في حياتي قدْر ما استمتعتُ يوم أمسكنا بهرّ

٥- Los Puritanos أو التطهيريون هم فرقة من غلاة البروتستانت.

٦- ادعى كارلوس دي بوربون حقّه بعرش إسبانيا بعد وفاة شقيقه فرناندو السابع وخاض أتباعه ثلاث حروب أهلية جرت الأولى منها بين عامي ١٨٣٣ و ١٨٤٠.

مسكين وألقينا به في فتحة مدخنة صاحب النُّزُل بعد أن عبرنا إلى السطح المجاور لسطح المدرسة عبر شباك أغلقوه لاحقاً بمشبك حديدي. لقد هبط الحيوان المسكين وهو يجاهد من أجل التشبّث بجدران المدخنة ليتحوّل إلى منظّف مداخن، بينما رحنا نتلوّى من الضحك ونحن نتخيّل الضرر الذي سيحدثه سقوطه المدوّي في مطبخ الفندق، بين القدور والطناجر. وما كنّا سنضحك أكثر لو أننا رأينا ذلك رأي العين، لأننا أطلقنا لخيالنا العنان ليتصوّر ما سيحدث هناك لحظة سقوط الهرّ. وفعلاً. فقد صعد صاحب الفندق، المقيم في الطابق الثاني، ثائراً شاكياً من أنّ هرّاً ملفوفاً بسحابة من السخام سقط على مطبخه فلوّث كلّ شيء وأطاح بالقدور. أمّا نحن فلم نستطع أن نكتم ضحكتنا ونحن نتخيّل المشهد ونستنتج من حركات صاحب الفندق وصراخه جرعة الكوميديا التي سبَّبها. وما أكثر ما تولّد الضحكة المكتومة من الخيال الباعث على الضحك! وعدَه المعلّم بإنزال أقسى العقوبة في حق الجُناة، ولكن وقع ما يقع عادة بين الغجر والبياعين البرتغاليين في مواسم السوق: لم تحدّد هويّة الجاني وحرم المشتبه بهم الستة أو السبعة من فسحة التنزه. ولا شكّ أنّ المعلّم نفسه ضحك من شقاوتنا وعبثنا.

كنّا نتلو الصلاة الوردية كلّ يوم بعد الدرس، جاثين على المصاطب، نرفع أصواتنا، بلطف عند البدء ثمّ بقوة مع اقترابنا من نهاية تلك المحنة. كان يثقل علينا تكرار الصلوات ذاتها للعذراء مرّات ومرّات، وذاك التسويف في ما نعد الربّ به. كنّا نجد متعة كبيرة في ترتيل الأدعية، حين نمدّ الصوت في نهاية عبارة «صلّي لأجلنا!!!!!!!!!!!!!!!!...» (هكذا ننشد وقد حرّفنا في اللفظ والبناء)[٧]، بعد ذلك ننشد «أبانا الذي في

٧- يورد الكاتب مثالاً على التحريف الذي يصيب البناء والنبرة لا نجد ضرورة لترجمته وبيان ما فيه من تغيير.

السماء» و«السلام الملائكي» طلباً للرحمة لأرواح المطهر المباركة وأرواح موتانا والقريبين منّا، لروح القديس (روكي)، شفيع الطاعون ومن أجل حوائج الدولة والكنيسة، ولروح شفيع المدرسة القديس (نيقولا)، ثمّ ينتهي كلّ شيء بإنشاد صارخ لـ «خفّف أيّها الربّ من غضبك وعدالتك وقسوتك!» من دون أن أتبيّن، ولوقت طويل، سبباً لإيراد كلمة باسكية[٨] تعني «العين الحمراء» وتشير إلى عين ماء قريبة من بلباو، بعد كلمة «خفف»، التي طالما راق لي سماعها. ولئن استغرب أحد أن نتلو «أبانا الذي في السماوات» على روح القديس (روكي) شفيع الطاعون والقديس (نيقولا) شفيع المدرسة، فماذا عساه يقول وهو يسمعنا نخاطب بها وبغيرها يوميّاً القديس يوسف بعد أن تعلّمناها لنخاطب بها الربّ الأب حصراً؟

كلا، يجب الإقرار بأنّ المسبحة الوردية المقدسة لم تكن التمرين الأنسب لإثارة حميتنا الدينية. كانت لدينا، لحسن الحظ، فضلاً عن تلك التراتيل المكررة الطاحنة، تلاواتنا الدينيّة التي تزخر بالعبرة وتثير المشاعر، وكان من بينها ذلك النشيد الحزين الذي يقول:

بمبنيتو. بمبنيتو
سرتُ في طريق
صادفتُ امرأة
تكتسي بالبياض
فقلتُ لها:
– «أيتها المرأة النصرانية، هل رأيتِ يسوع الحبيب؟»
– نعم سيدتي. رأيتُه. مرّ من هناك، يحمل الصليب على كتفيه

٨– هي كلمة iturrigorri

ويجرّ السلاسل، واليهود الكلاب وراءه يدفعون به، والقديس يوحنا والمجدليّة يسيران إلى جنبه يبكيان.

لا أتذكّر بقيّة النشيد.

ما كان أعظم المشاعر التي تثيرها فينا قصيدة الأطفال المقدسة تلك، بترتيلها الشكّاء، الذي لا يعدله أثراً غير أغنية «كارابي هوري هورا»[٩]، التي لمستُ عمقَ أثرها في أولادي وقد أصبحتُ أباً ورأيتُ أنّ ما تعنيه لهم هو ذاته الذي كانت تعنيه لنا ونحن في أعمارهم. ونعيد بلا كلل ولا ملل نشيد بمبنيتو، بمبنيتو.

أذكر أيضاً أنني قرأتُ في كتاب للصلاة دعاءً حارّاً يثيب قارئه خمسين يوماً من المغفرة عن كلّ مرّة يردده فيها بخشوع، فجلستُ أنا وابنة عمّ لي ذات مساء على طاولة المطبخ نردد ذلك الدعاء لوقت طويل وفي يدنا قلم سجّلنا به على ورقة مخططة لا شهوراً من المغفرة بل سنين كسبناها. وما من شكّ عندي في أننا كسبناها.

٩- من أغاني الأطفال التراثية.

ـ ٤ ـ

في نهاية الشهر نحمل الشهريّة للمعلّم! تصوّروا! دورو واحداً[١٠]! لا شكّ أنّه غنيّ! ثمّ نحسب كم يكسب يوميّاً.

كان يوم دفع الشهرية يوماً مشهوداً وكنّا نعي خطورته وأهميته، ففيه توكل إلينا مسؤولية حمل مبلغ معتبر، لذلك كنّا نحمله ونحن نطبق قبضة اليد عليه ونحشرهما معاً في جيوبنا، لكي تصل قطعة النقود إلى يد المعلّم دافئة. ثمّ يدخل المعلّم علينا ونحن في صالة صغيرة دافئة أيضاً ولمّاعة من نظافتها تعبق برائحة الكافور والبخور اللطيفة. قليلاً ما كنّا نصل إلى ذلك المحراب، حيث تتحوّل المدرسة إلى مسكن دينيّ للمعلّم.

هناك كان المصلّى، ولا يعتقدنّ أحدٌ أنّ المصلى كان من تلك التي نشاهدها في المنزل أو في الألعاب، أو كتلك التي كنّا نقيمها ونحن صغارٌ لتمثيل مشهد القدّاس، لا شيء من هذا، بل كان مصلّى يقام فيه قدّاس حقيقي، قداس براهب ونواقيس. كان هناك أيضاً ساعة بندول وخزانة عليها كيس أخضر في داخله قطع من الحلوى المدوّرة المحمّرة المحمّصة. نسلّمه قطعة الدورو فيعطينا من تلك الحلوى... فما كان أحوجه إلى الشهريّة.

---

١٠ – El duro عملة ضئيلة القدر كانت تعادل خمس بيزتاتpesetas ولكن يبدو أنّه كان ذا قيمة معتبرة في الزمن الذي يتذكره المؤلف.

أذكر أننا تجادلنا مرّة إن كانت قطعة الدورو أكثر قيمة من قطعة الحلوى، ولا أستغرب أنّني كنتُ من طرح هذا الموضوع الغريب، لأني كنتُ أجهل قيمة الدورو وسعر قطعة الحلوى، ولأني كنتُ متخصصاً في إثارة مسائل تثير الضحك بين من هم أكثر فطنة أو أكثر خبرة بأمور الدنيا منّي.

لم يكن قليلاً النجاح الذي أصبتُه ذات يوم حين لاحظ العريف صمتي الدائم – كنتُ قليلَ الكلام وأنا صبي ولم ينطلق لساني إلّا الآن – فقال لي: «ما بك يا ميغيل؟ قل شيئاً!»، فرددتُ عليه بجدّ: «شيئاً!». ووصلتُ في يوم آخر متأخراً إلى حصّة الرسم، فجرى بيني وبين دون أنطونيو الحوار التالي:

– من أين أتيت؟

– من بيتي

– من أيّ طريق؟

– من الطريق.

– ولكن كيف أتيت؟

– مشياً.

إشارات مبكرة تنمّ عن ميلي إلى الفلسفة. أمّا أوليات ولعي بالأدب فلا شاهد عليها خيراً من أنني كنتُ، في أيام الأحد الممطرة، أجمع حولي العديد من زملائي بعد أن يأمرني المعلم: «ميغيل، احكِ لهم قصصاً»، فآسرهم وأشدّ انتباههم بقصص من قصص التشويق، وهي صدى قراءاتي لـ (جول فيرن) و(ماين ريد)، وكانت كلّها تدور حول سفن تغرق وأخرى تبتلعها الحيتان والتماسيح ومعارك مع المتوحشين والهنود الحمر – الهنود الحمر أسوأ من المتوحشين –وآلاف من الفظائع التي كنتُ أسردها إلى أن أقول لنفسي كفى! فأقطع السرد بقتل البطل.

لكنّ صديقاً طيباً لي تفوّق عليّ لاحقاً في اختراع الغرائب. كان بيبه غاريغورتا يروي مغامرات أضحك لها لأنّها تفوّقت على مغامرات بيرسيليس وسيخيسموندا[١١]. لن أنسى ذلك اليوم الذي سمعته فيه يقصّ أنّ مغامراً ما اضطرّ أن يعبر، لا يعرف لماذا ولا لأجل ماذا، من قمة جبل إلى قمّة جبل آخر، فوق واد ملتهب مزروع برماح صوبت أسنتها نحو الأعلى، سائراً على حبل غليظ ممتد بين تلك القمم، محمّلاً بأطنان من الحديد وهو يحمل عصا التوازن بين يديه. ثم يحكي لنا عمّا يقول إنّه رآه في منامه في الليلة البارحة، معارك حامية دائماً أبطالها هم أهل مدين الغامضون، الذين كنتُ أتخيّلهم كائنات لا أعرف إن كانت أعلى أم أدنى مرتبة من البشر.

كنتُ، كما قلتُ، حكواتي المدرسة، على الرغم من سذاجتي. سذاجتي تلك التي وضعتني موضع التندر إذ قلتُ يوماً وأكّدت جادّاً، وأنا في سنّ كان الأطفال الآخرون يعرفون فيها أموراً تتجاوز ما علّمهم منها الكبار، إنّ الأولاد يولدون من البركة الكهنوتية، أمّا ما يتهامس الناس به هنا وهناك فهو خطيئة محض أو هي بدعة من بدع أولاد الشارع.

ما أروع آفاقَ الحياة التي تتفتّح أمامي حين تطفو على روحي ذكريات تلك الأيام الهانئة التي كنّا نعود فيها إلى البيت نتصبب عرقاً، بوجوه تتوهج وعيون تبرق للحياة، وأبدان بدت فيها كدمة هنا أو سحجة هناك، ونظرة تنفتح على جمال القشور، ونفس تنغلق عن حزن الجوهر، لنعلّق الثياب المقطعة على المشجب ثمّ لنلقي بأنفسنا على السرير وننام كما ينام القديسون أو كما ينام الأطفال.

---

١١ – Los trabajos de Persiles y Sigismunda هي آخر ما كتب ميغيل دي ثربانتس من روايات. وهي رواية تجمع بين الحب والمغامرة.

-٥-

شُبّه الأطفالُ بالرجال المتوحشين وشُبّهت جمعيات الطفولة بالمجتمعات البدائية، وأُلّفت حول الموضوع كتب مليئة بكلام يدور حول عادات هؤلاء وألعاب أولئك، وتعقد المقارنة بينها. وكما تنعكس الشجرة البالغة في بذرتها، كما يقال، فهناك من يرى أنّ تركيبة المجتمع المعقدة تنعكس في ألعاب الطفولة.

لنتكلّم الآن عن الاقتصاد السياسي وعمّا يمارسه الأطفال منه.

يقال إنّ أصل النقود، أو المال الوضيع، وما هو بأقدم من سواه من أمور البشر ولا بأكثر ضعة منها، موغل في القدم. يحكى أنّ المتوحشين كانوا يستخدمون الريش والصدف وآلاف الأشياء لعقد معاملات البيع والشراء وإبرام الصفقات. أمّا في مدرستنا فقد كنّا نستخدم القديسين والرسوم التي يسمونها «المناظر» أيضاً، وأريد بها الصور الملصقة على علب الكبريت، على خلاف طوابع البلدان، التي كنّا نجمعها أيضاً، والتي لم تكن وسيلة للدفع أو المقايضة، بل كانت ضرباً من الترف، كالألماس والأحجار الكريمة، وثروة تدخر وتوضع تحت التصرّف، وحاجة يمكن بيعها أو رهنها حين تمسّ الحاجة إلى بيعها أو رهنها.

قديسون من كلّ صنف وثمن: كانت بعض الصور أكثر رواجاً من غيرها، تلصق اثنتان منها لتكوّنا صورة من الناحيتين؛ رسوم تقصّ،

تُدوّر أطرافها فتبدو كأوراق اللعب الرقيقة؛ صور لأنصار كارلوس دي بوربون، رقيقة، عادية (صور من علب الكبريت المستخدمة في المطبخ، التي تستخدمها الخادمات فلا يشتعل من كلّ عشرة أعواد منها إلّا واحد)؛ لبعضها قيمة الوحدة الواحدة، لغيرها قيمة وحدتين أو خمس وحدات، أمّا العادية فقيمتها نصف وحدة. وكنّا نحن الأطفال، كما الإنكليز، نجهل نظام النقد العشري. ومن الصور ما كان فاضحاً، لكنّ تداول هذا الصنف من الصور كان قليلاً ويتمّ في الخفاء.

فالقديسون إذن كانوا نقودنا؛ نشتري بهم وجبة العصر: قطعة من تفاحة أو فلقة من برتقالة أو حافة خبزة محمّصة. لم تكن صور القديسين عملة كسواها، بل كانت عملة تعليمية، فيها شيء من التاريخ وشيء من السيرة، بل شيء من الجغرافية. إنّه التعليم بنكهة لذيذة. وما هي أكثر التعاليم والمبادئ التي ستحوز على الذيوع والانتشار لو أنّها نقشت على قطع النقود! يبدو لي أنّ هذه هي خير طريقة لمحاربة الاشتراكية: نقش حجج قصيرة على قطع النقود المعدنية، شرط أن يتسع المكان لها وأن تكتب بحروف واضحة، وليس ضرورياً أن تكون مقنعة، وتوزيعها على الاشتراكيين. المهم هو تكرارها كثيراً ومن دون كلل لتسفيه آرائهم ودحض حججهم، تطبيقاً لقاعدة تربويّة حكيمة.

بفضل صور القديسين عرفتُ منهم (سافالس)، بشاربيه العظيمتين، و(كابريرا) و(ساغاستا) و(بريم) و(سرانو) و(توبيتي)–هؤلاء كنّا نعرفهم هكذا، بجرة واحدة – و(باتي) و(كوجارس) و(ثربانتس) و(مونتيس). وكانوا معجمنا في التراجم والسير.

لكنّ الوظيفة الرئيسة للقديسين، وهي وظيفة النقود أيضاً، كانت اللعب بها. وكان ذلك أجمل ما فيها. فالقديسون وجدوا لكي نلعب بهم، شأنهم شأن الأوراق المالية في البورصة.

ما كنّا نعدم بالطبع البخلاء الذين كانوا يجمعون القديسين ويكنزونهم في مجموعات. بل كان هناك من ينزع الصور من الكارتون ويلصقها في ألبوم، أو من يغلّف بها جدران المرحاض. نوبة صوفية لتبديد الثروات الدنيوية!. مع ذلك فمن الواجب القول، خدمة للحقيقة وللطفولة، إن ذلك الفعل كان إمّا بدفع من الآباء أو من عمل الآباء أنفسهم، ممن أجّجت السنون نارَ الشحّ فيهم، لأنّ الشحّ هو شيخوخة الروح.

كنّا نقترع بالقديسين، نلعب بصورهم لعبة الطرة والكتبة، ولعبة على الطاير ولعبة (لامونتادا)، ولم يكن أيّ منها في الواقع من ألعاب الزهر. فما من سبيل في لعبة الطرة كتبة لحساب الارتفاع أو تدوير القديس ليسقط على وجهه أو على قفاه! بالطبع لم يكن هناك من يحسب ذلك كلّه ليسقط القديس على هواه أو كما شاء له الرب أن يسقط، وهي الطريقة الطبيعية لسقوط القديس. (لا أتطرّق هنا إلى أن الإسبانية حين تقول إنّ فلاناً انتهى كما شاء له الربّ أن ينتهي إنّما تقصد أنّه انتهى بخلاف المرغوب).

ما عليك إلّا أن تشاهد الأرض ونحن نلعب (لامونتادا)، مزروعة بصور للقديسين مطروحة من دون فاصل يفصل بينها، ولكن من دون أن يركب بعضها على بعض أو تلامس إحداها الأخرى، بينما نعالج حماسنا ونسحب، مع زفرة كلّ لاعب، واحدة من الكومة ونتطلع إليها وهي تنزل فوق أخرى؛ حينئذ نتنفس الصعداء! حين تكون الملامسة طفيفة يثور الجدل حول إن كانت «ملامسة طفيفة» أم «ملامسة وإعادة»، أي إن كانت مقبولة أم إن على اللاعب أن يعيد الكرّة! نراقب اللاعب المنافس كي لا يطوي صورة القديس ويحول هكذا دون أن تقع عموديّاً، ونكلّف صديقاً بأن يصلّي من أجل أن نكون نحن الغالبين.

أمّا حين نلعب على الطاير فنعمد إلى رمي صورة القديس أفقيّاً ثمّ ننفخ عليه لنشجعه، وهذا، بلا شك، من بقايا تقليد النفخ على الجعران لكي يسترد حياته، الموروث من التراث القديم أو من طقوس السحر القديمة. أولم يضع الرّبّ، الذي خلقنا على صورته كشبهه، الروح في جسد آدم بنفخها فيه؟!

لا بدّ لك أن تذكر دائماً وتتذكّر الوسيلة التي تمكّنك من أن تصبح في المدرسة صاحب ثروة كبيرة، وإن كانت زائلة، فلا كبير يدوم ولا كثير يبقى.

كان قانون اللعبة الصارم - وكلّ القوانين صارمة - يلزم الرابح أن يواصل اللعب شاء أم أبى، ما دام الخاسر يمتلك ما يلعب به، كما أنّ على الخاسر، وقد فقد كلّ ما لديه، أن يتقبل القديس الذي يعطيه الآخر إياه على سبيل الإعارة لكي يحاول به تجربة حظّه. وسترون كيف استغللتُ هذا القانون للمضاربة.

أعلنتُ أنني سأعطي عن كلّ عشرين قديساً معارين لمدة أسبوع واحداً إضافيّاً بصفة فائدة، وهو ما لا يصل إلى ١,٠٤٠٪ سنويّاً. راح مردود التلويح بالفائدة يدخل إلى جيبي في صورة ثروات بسيطة حتى أصبحتُ مالكاً لرأسمال معتبر. وحين امتلكت القانون ورأس المال لم يبقَ لي إلّا أن أستعين بالقوة الشديدة التي لا يمكن لشركة من دونها أن تزدهر، فضممتُ إلى أعمالي صبيّاً قويّاً مشاكساً، كنّا ندعوه «بائع البرتقال»، بسبب الطاقية التي يرتديها، ليدافع عن رأسمالي ويفرض سلطة القانون.

كنتُ أصلُ بجيبين عامرين بصور القديسين، وأعرض على أيّ كان أن يلعب معي بما لديه منها، وغالباً ما تكون هي نفسها التي أقرضته إياها بفائدة، فإن خسر تفاوضت معه على عجل، وإن خسرتُ أنا أوّلاً

ضاعفتُ له الرهان وأجبرته على مواصلة اللعب بدعوى أنّه يربح، وهكذا، بين احتجاج بالقانون وتلويح بقبضة شريكي التنفيذي بائع البرتقال، كان المسكين ينتهي وقد أفرغ كلّ ما في جعبته. «هل تريد أن تلعب؟». «نعم»، «من عشرة؟». «طيب!». خسرتُ أنا؟ «من عشرين!». أواصلُ الخسارة؟ «من أربعين!»، ولمّا كان عندي من رأس المال ما يمكنني من عقد رهانات متلاحقة ومضاعفة، فلم أكن أعرفُ للصدفة وجوداً ولا للارتجال معنى.

ولتقولوا لي الآن إن كان مبدأ إفراغ ما في جيب الأفراد عن طريق أموال المجموع لا يشبه تماماً مؤسسة البنوك. ولتقولوا لي إن لم أكن أمتلك قابليات كبيرة لكي أكون واحداً من كبار رجال المال والأعمال. وهنا أيضاً نجد مصداق ما جاء في الإنجيل من أنّ من يملك الكثير فسيعطى الأكثر، لكنّ من لا يمتلك إلّا القليل فسيؤخذ منه حتّى هذا القليل. من المؤسف حقّاً أن يقبر ميلي الاقتصادي المبكّر في مهده! لم أجنِ شيئاً من ثماره، لكنّ زهرة ذكرياتي القديمة هذه ترسل لي من عطرها عبر السنين ما يجعلني أفكّر في ما كان يمكن أن أبلغه لو أنني انصرفتُ إلى جمع المال وتكديس الثروة...

أسستُ بعد ذلك، في شراكة أيضاً مع صديقي «بائع البرتقال»، يانصيباً كنّا نربح فيه الخمسين بالمئة ونوزّع الخمسين بالمئة الأخرى في جوائز.

وحين يسير كلّ شيء على ما يرام يأتيك العائق الأبدي الذي يحول دون كلّ تقدّم ويقف في وجه كلّ مبادرة، وقد أتى ما سحق كلّ شيء ودمره: أبو الاشتراكية، وأصل أسوأ مساوئ الاقتصاد: تدخل الدولة والحماية الجمركية.

فوق القانون والذكاء والقوّة يأتي العَدد وفوق العدد تأتي الدولة،

ممثلة بالمعلّم، وهو قاضٍ لا يقبل نقضاً ولا استئنافاً، يهب العدالة، ويمنع النزهة أو الطعام، ويوزّع الضرب بعصاه هنا وهناك.

ذهبَ أحدُ التلاميذ إلى المعلّم ذات يوم، واحدٌ من فقراء الروح، ممّن يعالجون سوء حظهم بالغش ويجهلون قوانين الحظ، وللحظ قوانينه، بعد أن لم يربح شيئاً في ثلاث قرع أو أربع، ذهب إليه ليقصّ عليه أنّني أحتالُ للاستيلاء على أموال الآخرين، عمّ الاستياء، ولم يكن أمامنا إلّا إعادة توزيع ثروتنا التي كسبناها بكد وشرف. فطوبى للبكائين إذ يتلقون المواساة والعزاء! وطوبى لأولئك الفتية الشكائين إذ يظفرون ببغيتهم! فحتّى المعلمون مبتلون بتلك العاطفة الوبيلة التي تستجيب إلى دموع من لا يجيدون شق طريقهم في الحياة من دونها.

كم لعنتُ حينها الحماية الجمركية التي يمارسها المعلّم!

هكذا تعمّقت جذور التجارة الحرة العاطفية في ذاكرتي. كم لعنتُ ذلك الغشّاش النمّام الذي لم يرضَ بنصيبه! أولئك، أولئك، الذين يريدون أن يكونوا في السرّاء دون الضرّاء، أولئك هم من اخترع الدولة. كم كانت الأمور مواتية لنا ونحن نسير وفق القانون، بفضل نبوغي وبفضل قبضة صديقي وشريكي «بائع البرتقال»!

-٦-

للحقل في نفوسنا، نحن أبناءَ المدينة الذين ولدنا ونشأنا بين الشوارع، أثر لا يوصف. والفضل في ذلك يعود إلى ريف المدينة الأخضر النضر. فالحقل هو في عين الطفل هواء وضوء طبيعيان قبل كلّ شيء.

نخرج للتنزّه عادة إلى حقل (البولانتين)، نسير في طابور، ثمّ نسمع صفقة المعلّم فنتفرّق راكضين بين الأشجار وفوق العشب وبالقرب من النهر، حيث يمرّ بين الفينة والفينة مركب بخاري قديم من تلك التي تسير بالدواليب، فننطلق منشدين في جوقة بعد أن نصعد على الدكات لنتطلّع إليه من عل: الباسكي الجبلي! الباسكي الجبلي! الباسكي الجبلي!، أو أيّاً كانَ اسم المركب. أمّا ترديد اسم الشيء ومناداته فقد كان واحداً من متع الطفولة؛ كان من قبيل امتلاكه روحيّاً.

كان عصر الخميس خالياً من الدروس، لذلك كان التنزّه فيه، حين يكون الطقس لطيفاً، أبعدَ مسافة وأطولَ وقتاً. يسألنا المعلّم أحياناً عن الوجهة التي نرغب في الذهاب إليها، وكان المكان الذي يفضّله أغلبنا هو (لا لاندا بيرده)[١٢]. فنصيح مجتمعين: «لا لاندا بيرده! لا لاندا بيرده! لا لاندا بيرده!». فيحملنا إلى المكان الذي طلبناه.

كان السهل الأخضر، وما يزال، يقع بين (بيغونيا) والنهر، نزولاً إلى

١٢- أي السهل الأخضر.

(بولويتا). لا أدري لمَ كنّا نستمتع في ذلك المكان أكثر ممّا نستمتع في سواه. منه تتكشف صخور (مانياريا)، البسيطة في تضاريسها الشامخة في ارتفاعها، وهي تُحكم غلق وادي (أيتشباري) الرائع، حيث ينساب النهر متلوياً بين الخضرة كالثعبان، فكأنه يريد قطع مسيره هناك. هناك تشمخ من ناحية جبال (آرجاندا)، التي طالما حلمتُ وأنا طفل بالطواف بها، فقد كانت تعدل عندي قضاء أمسية في مغامرة من مغامرات (جول فيرن)؛ وتشمخ من الناحية الأخرى، قريباً من المشرق المعتم، من حيث تخرج سحب سود تفسدُ علينا نزهتنا، مرتفعات (باغازارّي) الشاهقة، (همالايا) طفولتي، ومنها يطلّ جبل (الغوربيا) العملاق بعيداً قصيّاً برأسه الكبير.

لكننا لم نكن نتطلّع إلى بلوغ البعيد. الحقل كان في نظرنا هو ما نستطيع الجري فيه، وهو ما يضمّ أعشاباً وشجيرات وهوامَّ من كلّ صنف ونوع.

يبدو لي، وأنا أستحضر طفولتي عبر السنوات، أننا في أعماق أرواحنا كنّا ندرك الرابط بين كلّ شيء، وإن كان إدراكاً مشوشاً. كنّا نعجب بالحشرات النادرة وأشكالها الغريبة، بعضها بقرن واحد على ظهره، وبعضها الآخر بقرون متفرّعة، أخرى طويلة الساقين، الكثير منها عظيم البطن، ولجميعها أسماء ذات دلالة وصفات غير مألوفة. كان اسم أحدها (أغوانتابيدراس)[١٣]، هرقل الحشرات، ما أصغر جسمه وما أعظم قوته!

– أنتَ لا تستطيع القيام بما يقوم به. الحشرات بالقياس إلينا أقوى منّا.

– الضفادع ضفادع – ردّ الآخر جازماً.

---

١٣ – أي مقاوم الأحجار.

كنّا نطلق اسم الضفادع على جميع الهوام الصغيرة، حشرات كانت أم غير حشرات.

ذبابة الليل أو الحباحب غامضة، بينما كاسرة الأصابع مرعبة. حشرة الإسكافي تسير فوق الماء. يا للروعة! وتروى أشياء عن نملة دخلت في أذن واحد فأصابته بالجنون. أمّا من كان يسهو ويبتلع دعموصاً وهو يشرب ماء من بئر فإنّه يموت. كان كلّ شيء تقريباً سامّاً ولا سيّما النباتات، فمن بينها طعام أفاع وحليب ساحرات.

جميع الحشرات كانت تشدّ انتباهنا، وجميعها كانت تصلح لعباً لنا: الدعسوقة وصرصار الليل والجعران.

نضع الدعسوقة على عصا فتبدأ بالصعود وننتظر وصولها إلى طرف العصا لتطير، ثمّ نغنّي لها بينما تفتح أجنحتها الداخلية وتنشر جناحيها:

دعسوقة يا دعسوقة
طيري إلى الجبل
قولي للراعي
أن يأتي بالشمس
اليوم وغداً
وكلّ الأسبوع!

عن الجعران سأتحدث لاحقاً وبإسهاب. أمّا صرصار الليل، فمن منّا لا يتذكّر الجداجد أو صراصير الليل في طفولته؟ ومن منّا لا يتذكّر اصطيادها؟ أوّلاً بالقصبة، ثمّ، حين لا تجدي القصبة نفعاً، بالتبوّل فوق جحرها، ثمّ بحشر قصبة مشقوقة مغلقة بالفلين ومحشوة بالخس في جحورها.

داخل البلدة، بين شوارعها وفي بيوتها وفي المدرسة، كان الذباب هو مركز اهتمامنا، وكانت عبقريتنا الطفولية تجد فيه مصدراً للكثير من صور المتعة.

الذبابة حشرة رائعة، وهي واحدة من أكثر الحشرات إثارة للمتعة. وهذا ما يفسّر لي أن يمضي بيدرو العفريت، الذي يتحدث عنه صديق الأطفال، وقتاً ممتعاً وهو يصطاد الذباب في المكان الذي سجنه فيه أبوه. فاصطياد الذباب وسيلة من وسائل التسلية التي فيها من البراءة ما فيها من المتعة، سواء اصطيد وهو طائر أم فوجئ وهو يهمّ بالطيران أم بوضع القليل من السكر على طارف الإصبع وانتظار أن ينغمس في ملذاته والإمساك به من قدميه، وإن كان في هذه الطريقة الأخيرة من أساليب صيد البحر أكثر مما فيها من أساليب صيد البر.

وما أغرب التجارب التي كنّا نجريها على الذبابة بعد اصطيادها! فقد نحشر في مؤخرتها ذيلاً من الورق ثمّ نطلقها لتطير بالزائدة التي تحملها علّها تحطّ في ما بعد على منضدة المعلم أو على رأسه. وقد ننزع جناحيها فنجعلها تدور في حلبة سيرك نصنعها من أربعة كتب، حيث تجتاز حبل البهلوان وتصعد عمود الكوكانيا[١٤]. وقد نربط اثنتين منها على عودين ثمّ نضع في يدي كلّ منهما قشة على شكل سيف فيلعبان لعبة المبارزة بالشيش ونستمتع نحن بالنظر إليهما. وقد نقطع رأس الذبابة ونضعه في قطعة من الورق ثمّ نطويها ونضغط عليها لنشكل بالدم رسوماً جميلة متغيرة الأشكال والألوان.

أمّا اللعبة الأكثر إثارة فهي حين كنّا نحوّل الذبابة إلى محرّك خفيّ لطائر ورقي. نأتي بورق السكائر الخفيف ونصنع منه طائراً من طيّة واحدة ونحشر بين ساقيه ذبابة ثمّ نلصق جناحي الذبابة وساقي الطائر بالشمع. تبدأ الذبابة بالحركة فتسحب معها الطائر الورقي، فإذا ما تُرك الطائر الورقي على أرضيّة غامقة فلن يلاحظ أحد الخدعة ويكون

١٤- لعبة من ألعاب السيرك والمهرجانات تتمثل في عمود خشبي طويل مطليّ بالدسم يحاول المتسابق تسلقه ليحوز الهدية المربوطة في طرفه الدقيق الأعلى.

لحركته وقع كبير إذ يبدو للعيان وكأن الطائر الورقي يتحرك حقّاً. لقد توصّلت عن طريق هذه اللعبة إلى نتائج مدهشة، حتّى لأشخاص كبار بالغين. بل لقد بلغ من دهشة أحدهم أنّه أبى أن ينام ليلته تلك قبل أن يتأكّد من آلية الخدعة ويصدّق عقله ما رأت عيناه. فعلتها مع الكبار، أمّا الصغار فلم أخدع بها أحداً منهم قط.

لقد تجنّوا على الذبابة حين وصفوها بأنّها أشدّ غباءً من النحلة. وقد أثبت أحد مشاهير الكتاب أننا لو حشرنا نحلاً وذباباً في قنينة ثمّ وجّهنا قعر القنينة صوب الضوء وتركناها مفتوحة في الاتجاه المعاكس، لاضطرب النحلُ واصطدم بزجاج القاع وهو يسعى باحثاً عن الضوء غير مفكر في ذلك العائق غير المنظور. أمّا غباء الذباب فسيقوده إلى التحليق صوب الجهة المعاكسة ليجد المخرج على غير انتظار. ومعنى هذا أنّ النحلة أكثر جنوحاً إلى المنطق، أي أكثر غباءً من الذبابة، بينما الذبابة أكثر جمالية، أي أكثر روحانية من النحلة. النحلة الغبيّة تحتك وتصطدم بالزجاج مهتدية بالضوء، لا ترتدع ولا تقتنع، بينما الذبابة الفرحة المرحة، وقد وعت أنّها في سجن، أو أنّها في مكان قد يكون سجناً وقد لا يكون، فتستكشف أرجاء القنينة، تطير لتتسلّى من دون أن تعبأ بأن يكون الضوء وراءها، وهكذا تجد المخرج وتنال الحرية، وهي توجّه مؤخرتها إلى الضوء لاعبة لاهية.

أسأل بعد أن أخذني الكلام عن الذبابة: من منّا لم يتأمّل المشهد المؤلم الذي كانت وقائعه تدور في قناني اصطياد الذباب؟ يصارع الذباب الموت وهو داخل القنينة، ولمّا كانت كلّ واحدة منها تحاول النجاة بالصعود على غيرها وتجفيف بدنها ومن ثمّ الطيران، فمن الطبيعي أن ينتهي الأمر بغرقها كلّها لأنّ كلّ واحدة منها تحاول إنقاذ نفسها على حساب إغراق الأخرى.

أنتقل الآن إلى الجعران.

-٧-

كان الجعران واحداً من أفضل ألعابنا مع مخلوقات الطبيعة.

في بلباو، يطلق اسم «الكوجورّو» على ما يسمّى في أقاليم أخرى من إسبانيا بتسميات أخرى من مثل «خورخي» أو «بكايارين» أو «دبّور القديس يوحنا»، وما يسمّى بالفرنسية «هانيتون» - وهي كلمة من أصل جرماني تعدل قولنا «الديك الصغير» - ويسمّى في علم الحشرات «جعران الميلولونثيناي». اسم cochorro هو، بلا شك، تصغير «كوجو» ومعناه «الخنزير الصغير»، لأنّ اللاحقة orro تفيد التصغير كما في ventorro «الخان الصغير»، وabejorro «النحلة الصغيرة» وchicorro «الصبي الصغير» إلخ. لكن شكل الجعران أقرب إلى الخنزير منه إلى الديك، لذلك تسميه الإنكليزية، شأن الفرنسية، Cock chafer أي «الجعران - الديك». أمّا الألمانية فتسميه maikaefer أي «جعران أيّار».

فعلاً. ففي أيّار، شهر الربيع الرائق الجميل، كنّا نرمي أشجار الكستناء الهندية المكسوّة بعناقيد الزهور البيض بالحجر إن كانت ضخمة كبيرة، أو نهزّها هزّاً إن كانت صغيرة طريّة الجذع، لكي تسقط الجعران على الأرض ونلتقطها ونتسلّى باللعب بها.

يقول العارفون إنّ هناك خمسة عشر نوعاً من هذه الفصيلة من الحشرات، كنّا نعرف منها جعران القديس جورج وجعران القديس

خوان الأصغر، وكان جعران القديس بطرس أصغرها، وهو ما يسمونه fulón، وهو يعيش في غابات الصنوبر في منطقة (لاس آريناس).

ويا لغرابة تلك الحشرة! إنّها مصابرة صموت، لا يسمع لها صوتٌ إلّا حين تطير فيسمع أزيزها في الهواء. لكنّ المسكينة بطيئة في التحليق، لا تباشر الطيران إلّا بعد حركات معينة فكأنّها ترفع كتفيها استعداداً لفتح جناحيها الصلبين، اللذين يغطيان الآخرين الطويلين المطويين تحت ذينك الغطاءين. فالحشرة تطير بالجناحين الطويلين.

أمّا تسليتنا فكانت تتراوح بين إطلاقها في الصف أو استخدامها في فعالية أخرى: ننزع إحدى أرجلها، فلا تألم ولا تهتم، فلديها ستّ منها تفيض منها اثنتان على الأقل، ولمّا لم تكن تعرف للألم طعماً فقد كنّا نحشر دبوساً في فضلة الرجل المبتورة ونضع في طرف الدبوس شريطاً طويلاً من الورق. ثمّ نعلّق ذلك الشريط بعود صغير ونجعل الحشرة تدور في دوامة حول العود إلى أن تبدأ بالطيران ولسان حالها يقول: «أما وقد أجبرتموني على الطيران، فلأطر أنا على طريقتي». كان ممتعاً رؤية الجعران يطير ويطير حول العود مربوطاً به. أمّا ما لا يخطر على بال الحشرة الحمقاء فهو أنّها لن تتمكّن من الابتعاد كثيراً عن المكان وإن لفّت ودارت مرّات ومرّات. أمّا نحن فكنّا نتجادل حول أيّها أكثر اجتهاداً، فقد كنّا نسمّي ذلك اللف والدوران اجتهاداً.

– جعراني أفضل من جعرانك!

– نعم، أنت تحلم!...

كنّا نغنّي للجعران تشجيعاً له على الاجتهاد:

بابوليا. جيستوليا. بولا. بولا. تو

بابوليا. جيستوليا. بولا. بولا. تو

كلمات طقسيّة مبنيّة على أفعال لا تستعمل إلّا بهذه التركيبة المأخوذة من عالم السحر.

كنّا نخبئ حشراتنا في علب فرشناها حشائش وأوراقاً وزهور كستناء هندية، لكنّ المخلوقات المسكينة سرعان ما كانت تحتضر لتموت، فنأخذها بين أيدينا وننفخ فيها كما ينفخ في الكيس. فقد شاع بيننا اعتقاد بأنّ الحشرات تستردّ هكذا الحياة. كان اعتقاداً لم تفلح التجربة في دحضه. نعم. كانت تسترد الحياة ولكن لتموت.

عرفتُ بعد ذلك أنّ الجعران رومانسي، فهو يموت بعد يوم واحد من الحب، أمّا الأنثى المفجوعة فتعيش بعده يوماً أو يومين، تضع بيضها، وتقلّب عينيها وتعود بذاكرتها إلى الفقيد الفاني وإلى يوم سعادتها القصيرة، ثمّ تلفظ نفسها الأخير وتموت.

ما كنّا نتساءل عنه ونحوّله أحياناً إلى موضوع للنقاش هو مكان صغار الجعران. أين توجد؟ ولماذا لم نكن نرى حشرات الجعران إلّا وهي بالغة مكتملة؟ وأين تقضي شتاءها؟ أسرار وألغاز.

سمع أحدنا من الكبار، ممن كانوا يقضون سنتهم الأخيرة في الثانويّة، إنّ إناث الجعران لا تضع صغاراً، بل إنّ الصغار تخرج من دودة أكبر منها، تعيش تحت الأرض وتتغذّى على الجذور، وتغلق على نفسها شرنقة يخرج الجعران منها، وما كانت تلك سوى أكاذيب يريدون لنا أن نصدقها. من دودة، نعم، تخرج من دودة!...

– اسكت أيها الأحمق، هم يعرفون أكثر منك حين يقولون...

– إن كان يعرفون فهذا شأنهم...من دودة، نعم، تخرج من دودة!...

حين نرى أنّهم بهذا الكلام يريدون أن يحطّوا من قدر الجعران، الذي يقتات على الزهور، كنّا نشجعه على الدوران حول العود منشدين:

بابوليا. جيستوليا. بولا. بولا. تو

علمتُ لاحقاً أنّ أرسطو تحدث عن أنّ أطفال الإغريق كانوا يلعبون لعبة الجعران، فاللعبة إذن قديمة، وقد شعرت بالفخر حين علمتُ بأنّ واحدة من ألعاب طفولتي لها ذلك الأصل العريق.

أتراهم ما زالوا مصرّين على أنّ الجعران يخرج من دودة...!

-٨-

تكشّف الفنُّ لنا قبل أن تتكشف الطبيعة. يقول (شيلر)[١٥] إنّ الفن يولد من اللعب وإنّ اللعب هو حياة الطفل. يولد الطفل فناناً حتّى سنّ الرجولة. فإن ظلّ فنّاناً فمعنى ذلك أنّه ما زال طفلاً.

اللغة ذاتها كانت لعبة؛ كنّا نلعب باللغة. فقد تثير كلمة جديدة فينا الفرحة كما يثيرها عثورنا بحشرة جديدة، وإن كنّا عموماً نتندّر ممّن يتكلّف الكلام ويتصنّع فيه.

- عجباً! ليقال إنّه...-كان ذلك هو ردّ فعلنا حين يتفوّه أحدنا بكلمة تبدو لنا غريبة أو مأخوذة من الكتب.

ثمّ إننا كنّا نخترعُ لغات خاصّة لا يفهمها غير اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء، وتلك الطريقة التي كانت تتمثّل في إضافة المقطع (- بي) أو أيّ مقطع، إلى كلّ كلمة من كلمات الجملة كأن نقول: «أخبربي باكوبي أنّبي ذاهبي لأحطمبي فمهبي».

أمّا أدبنا، الذي كان يتناقله الأطفال من دون أن يلوّثه الكبار، فكان محصوراً في أناشيد الجوقة وفي بعض الحكايات القصيرة والساخرة، أو في الإحباط الذي يصيبك حين يُطلب منك أنّ تردّ على سؤال معين بردّ يستدعي ردّاً.

١٥- Friedrich von Schiller (١٧٥٩-١٨٠٥). شاعر وكاتب ألماني.

ممّا أذكر من ذلك النشيد الأكثر قتامة وسوداوية، باستثناء ذاك الذي ذكرته سابقاً بمبنيتو بمبنيتو:

هناك في الأعالي/ في لوس آركوس دي نابارّا، وهكذا!
في لوس آركوس دي نابارا
كان تسكن آنسة قديسة/ كان اسمها كاتالينا، وهكذا!
كان اسمها كاتالينا
في كلّ يوم من أيام العيد، كان أبوها يعاقبها، وهكذا!
كان أبوها يعاقبها.
كان أبوها مسلماً/ وأمّها قاسية، وهكذا!
أمها قاسية.
أمرتْ بصنع دولاب من السكاكين والمطاوي، وهكذا!
من السكاكين والمطاوي

ولا أذكر أكثر من تلك الأنشودة بسبب الطريقة التي كنّا نرتلها بها.

كم من السحر تحوي أغاني الأطفال التي لا تعرف زماناً ولا تتقيّد بمكان! تتنقّل، كما قصص الأطفال، بالتواتر جيلاً بعد جيل، من دون تدخّل من الكبار، وتجري مع التقدم الاجتماعي وفي تيّاره الحقيقي والعميق. ولمّا كان الصغار يتعلمونها وهم بعد أمّيون لا يقرؤون ولا يكتبون، فإنّها تمثّل التراث الحقيقي، الأساس، السابق لكلّ فن وكتابة، ذلك التراث الذي يحوّل توثيقه دون أن نفهمه أو أن نشعر به. إنّ الموروث الكلاسيكي البدائي والطفولي المنقول يفوق الموروث الموثق المكتوب صحة وصدقاً. فالمكتوب أكثر عرضة للتبدّل والتغيّر، وهو ينتقل من ناسخ إلى ناسخ أو من كاتب إلى كاتب، من الحكايات التي تنقل شفاهاً، من دون ناسخين يفسدونها أو يرسمون حدودها. ألم يدبّ الفساد إلى أشعار هوميروس ما إن بدؤوا بكتابتها؟

وأيّ تنويع في تلك الأناشيد! وأيّ احترام وتقديس للكلمة، التي تكمن قيمتها فيها وبها. أذكر أغنية تبدأ هكذا:

Ambo ató, matarile rile rile

ولـم أعـرف إلّا بعد وقـت طويل أنّ تينك الكلمتين الأوليين الغامضتين[١٦]، التي كان لها في نفوسنا سحر الكلمات النقيّة، البكر، المقدسة، لم تكن سوى تحريف للكلمات الخمس الأولى من أغنية فرنسية تغنّى في جوقة وتبدأ هكذا:

...J'ai un beau château

مع ذلك كان الهازل والمضحك هما ميدان أحاسيسنا الجمالية، وكان في الهازل المضحك ذاك عنصران أساسيان: انعدام الترابط والبذاءة.

لا يستمتع الطفل بشيء قدر استمتاعه بخرق المنطق ومخالفته، أمّا أوّل ما يولّد المرح في ما هو هزلي فهو انتباهه إلى غياب الترابط في قول من الأقوال. فاجأتُ أولادي حين كانوا صغاراً وهم يحشون كلامهم بمقاطع من صنع خيالهم وبلا معنى، وحين تنبّهوا إلى أنني كنتُ أراقبهم خجلوا وأحسّوا بالحرج. يكثر في أناشيد الجوقات التوارد المتنافر، حين لا تعدو مفرداتها عن أن تكون مجرد ربط للكلمات.

العنصر الآخر هو عنصر البذاءة، الرائحة الكريهة، الرسمُ بالخراء. يبدو أن الطفل يضحك غريزيّاً حين يسمع صوتاً لا يصدر من الفم بل من الجهة المعاكسة السفلى، صوت يحمل رائحة كريهة. الضراط –

١٦– يقصد بالكلمتين الغامضتين كلمتي Ambo ato وهما فعلاً تحريف للعبارة الفرنسية اللاحقة J'ai un beau château التي تبدأ بها الأغنية والتي تعني «لديّ قلعة رائعة».

هكذا يجب أن نسميه من دون حرج–هو واحد من العوامل التي تبعث على الضحك في الطفولة.

أتذكّر في هذا المجال آلاف الطرف التي تخطر في المدرسة على بال (فليكس) و(خوان). حين كان أحدهم يضرط أو يحاول أن يضرط، كان يحرّك يده كمن يحمل مادة سائلة ليرمي بها على الآخر. وعندها يدفع الآخر عن نفسه شرّ ذلك الوحل الخفي إمّا بصده أو بالتقاطه وردّه إلى من ألقى به عليه. فيعلّق هذا بدوره عادة: «لا تحاول، لا، لا...فقد جفّت! جفّت!» في إشارة إلى أنّ في غير مقدور الآخر أن يزيل النجاسة من على بدنه.

وقد يعمد أحدهم، في لحظات الانتباه والصمت والعزلة، حين ينظر فيها كلّ واحد إلى الكتاب أو إلى ما أبعد من الكتاب، إلى إطلاق واحدة من تلك الأصوات البذيئة النتنة. ولك أن تتصور الهرج والمرج!

حين كبرنا فقدنا الإحساس بروح الدعابة الطفولية بعد أن كتم التهذيب الأحمق على أنفاسنا.

-٩-

ثم جاء الفن الذي كان الكبار يزودوننا به في كتب المطالعة أو في وسائط أخرى من وسائطه.

كانت المشاعر التي يحرّكها الفنّ في نفوسنا في تلك المدرسة المباركة تشبه تلك التي كان يحركها في النفوس الغابرة، نفوس الطفولة، نفوس القطعة الواحدة، النفوس التي كانت تفتح أنظارنا، بلا تعب من الحياة، على كلّ لون وكلّ خط، وتفتح أنوفنا على كلّ نسمة طيبة، وآذاننا على كلّ همسة، وقلوبنا على كلّ إعجاب بجمال وعلى كلّ صيحة فرح وإن كانت آنيّة عابرة. كان كلّ ذلك في نظرنا، كما كان في نظر الأولين، لغزاً غامضاً.

كان اللغز الغامض على وجه الخصوص وقبل كلّ شيء هو «الماثو»[١٧]: كتابٌ كبير، مطرقة حقيقية، الأكبر بين كتب الأطفال، والأكبر بين الكتب التي نعرفها، إذا ما استثنينا ذلك القاموس الغامض الذي كان الكبار يبحثون فيه عن معاني الكلمات في لحظات الدرس والانتباه. في «الماثو»، وهو كتاب مشروح لتعاليم الكنيسة، فقرات كانت تترك فينا انطباعاً رائعاً.

وماذا عن صديق الأطفال؟ وماذا عن خوانيتو؟

---

١٧ - El Mazo تعني «المطرقة».

ظلّ بيدرو العفريت محفوراً في خيالي، أراه يصطاد الذباب في زنزانته، بينما تدخل عليه أخته وهي تحمل له الطعام، ظلّت أيضاً (سالومي) النمّامة؛ وظلّ الجد؛ «الجربيتو»، ذلك الذي كان يدرس ليعرف؛ وظلّت الأختان اللتان كانتا تصطادان الفراشات في حديقة جميلة رائعة، تصطادانها شعراً؛ وظلّ الطفل الذي كان صدى صوته يردّ عليه «طفل أحمق!»، وظلّت القرابين. كلّ هذا ظلّ محفوظاً في ذاكرتي بفضل الصور والرسوم لا بفضل الحروف.

أمّا ما بقي محشوراً في نفوسنا أكثر من سواه فهي تلك الصور والرسوم القديمة التي تعلمنا بتأملها النظر. لا يكتسب القول فعاليته ولا الحكمة فضلها في الطفل ما لم يكن ذلك بالحكاية المرسومة. ولئن لم تطبّق أغلب المبادئ الأخلاقية التي تتناقلها الأفواه والنصوص ولم تتبلور في أفعال، فلأنّها ربّما لم تجد الصورة المرئيّة، بألوانها وخطوطها، التي يمكن لها أن تقدّمها على شكل أسطورة أو حكاية.

حين وصلتُ إلى (سالامنكا) وعلمتُ أنّ بلدة (آرمونيا) تبدأ عند مشارفها، بادرتُ إلى البحث عن ناس أحياء من أهلها، ناس من لحم ودم. يا لخيبة الأمل! اضطررتُ إلى إغماض عيني لكي تكتسيا بالشعر على ضوء ذاكرتي البعيدة. فقد كان بين الكتب التي حملها المرحوم والدي من المكسيك، حيث أمضى الكثير من سنوات شبابه، مجلدان مطبوعان في المكسيك عن إسبانيا أخرى، إسبانيا جذّابة ومتميزة. الكتاب، لحسن الحظ، تلف وتمزّق، لكنّي ما زلتُ أذكر صورة أسد على غلافه مع صورة لشخص غريب وهو يعرض منظراً للكون. في ذلك الكتاب عن إسبانيا الجميلة المتميزة تلك تحقيقات مصوّرة عن أزياء أقاليم إسبانيا وعن عاداتها وتقاليدها. يظهر في الصور غاليثيون من (فنيستيري)، امرأة جالسة، في خدمة بيت من البيوت، تغزل بمغزلها، ورجل، يعتمر برنيطة ويحمل مزمار القربة، يقف قبالة المرأة، وفي

مؤخرة الصورة حلقة من الصبيان يرقصون؛ أهل (نافارا) بقبعاتهم الكبيرة، وأهل (آلافا)، ببدلاتهم البرّاقة، كبدلات الرعاة في الأوبرا، يقودون عربة تجرها ثيران؛ وغيرهم الكثير. وبينهم هؤلاء جميعاً يظهر أهل (آرمونيا)، الذين طالما استرعوا انتباهي، إمّا لحلاوة جرس اسمهم وإمّا لأني لا أعرف أين أضعهم. كان هؤلاء في خيالي خارج كلّ زمان ومكان، كانوا في المنطقة الرفيعة من الصور النقيّة الصافية، مع أهل (مدين) الذين قلتُ إنّ صديقنا كان يحدثنا عنهم. وجئتُ إلى هنا فوجدتُ نفسي مع آرمونيين حقيقيين، في زمانهم ومكانهم، يحصدون القمح ويأتون به إلى (سالامنكا)! لا أنتظر لحسن الحظ أن أعثر على موسى الذي يضرب الحجر بعصاه فيتفجر منه الماء، كما يظهر في لوحة كانت تزيّن صالة بيتنا. فموسى غير موجود لا في (آرمونيا) ولا في مصر.

وماذا عن (خوانيتو)؟ حين كنّا نصل في القراءة إلى حادث موت (خوليا)، وهي أم البطل، كان يملأ أنفسنا تأثر غير مألوف، فكنّا نستجمع مشاعرنا استعداداً لقراءة تلك الفقرة المؤثرة. وحين يصل الدور لأحدنا في القراءة، تسمع صوته وقد انطفأ وصفاء قراءته وقد قطعها نشيج محبوس، ونروح نحن نمسح دموعنا باكين مع (خوانيتو) موت أمّه. وربّما فاقنا المشاغبون تأثراً، وإن كانوا أكثر استعداد منّا لتلقي الضرب بالعصيّ. وأتذكّر أنني رأيت المعلم أو العريف الذي كان يوجّه القراءة غير مرّة يداريان الدمع في عيونهما، وما كان لهما أن يداريا خجلاً من الأولاد. فطوبى لمن لا يستبدّ به الخجل من البكاء في حضرة الرجال!

كانت تلك الدموع المرغوبة، وكانت بالفعل مطلوبة ومرغوبة، والجميلة بقدر ما فيها من صدق، الأولى التي أسالها الفن من عيوننا، وربّما كانت الأخيرة بالنسبة إلى الكثيرين منّا. كان لا بدّ من تعليق

القراءة للحظات، وما كان لأحد أن يستهزئ من تلك المشاعر التي يثيرها فينا الخيال الأدبي. ولا شكّ أنّ الربّ سيضع ذلك في ميزان حسناتنا.

فضلاً عن تلك الفقرة المؤثرة كان هناك، بالنسبة إليّ على الأقل، التعبير الأرفع. لن أنسى أثر البساطة الفخمة الذي تحدثه في نفسي كلمات معينة لا أفهمها إلّا في نصفها، وكان هذا من متممات السموّ والروعة، وقد كان يعتادني كلّما قرأت كتاباً لا أتذكّر سوى أنّه كان ملخصاً للموازنة بين البروتستانتية والكاثوليكية موجهاً للأطفال من تأليف (بالمس)[١٨]. كان في الكتاب، وما زال فيه، إن كتب له أن يعيش، فقرة تنتهي بالقول: «مروراً من تحت رايات الملاك الساقط، أيّتها الرذيلة الشائنة!»، ويشير فيها على ما يبدو إلى التكبّر. كان المرور من تحت رايات الملاك الساقط أو الشيطان يتمثّل أمامي أمراً مرعباً ينذر بالقيامة، مشهداً من مشاهد الجحيم، لكنّ ذروة الأثر كانت في العبارة الأخيرة: أيّتها الرذيلة الشائنة! لم أكن أفهم، لا قليلاً ولا كثيراً، معنى كلمة «شائنة»[١٩]، لكنّها كانت تبدو خفيّة السعة غامضة المعنى، غموضاً لا يعرف له قرار ولا يسبر له غور.

حين يجري الحديث عمّا هو سام رفيع ويمرّ ذكر «ليكن النور فكان النور» في سفر التكوين، أو فقرة من فقرات هوميروس أو شكسبير، أعود بالذاكرة إلى أيّتها الرذيلة الشائنة! وأشرد قدر استطاعتي عن حالة الوعي الراهنة المصطنعة التي أعيشها وأحاول أن أستخرج، وأنا أهتزّ مفتوناً، من أعمق أعماق روحي الصدى الخافت الذي تركته في روحي الطفولي تلك الإشارة إلى الملاك الساقط. لأني فهمتها

١٨- Jaime Balmes (١٨١٠-١٨٤٨). فيلسوف وعالم لاهوت واجتماع إسباني.

١٩- الكلمة التي يتحدث عنها هي في الإسبانية nefando.

بعد ذلك وظننتُ أنني رأيت كلّ مضمونها، وخصوصاً أن الأشياء تغيّرت في نظري منذ أن اعتبر أولئك المتشدقون المتفيهقون المملّون المعادون للطفولة، بأسلوبهم البلاغي الخاص، استعمال كلمة «شائن» تجديفاً. كم أتوق إلى المعنى القديم للكلمة، المعنى الذي ينذر بالقيامة، المرعب والسامي لأنّه كان من دون معنى!

أمّا العلم والجدل فكنّا نتندّر عليهما. في ذلك الكتاب نفسه يرد ذكر (مارتن لوثر) و(كالفن) و(زوينكلي) و(سوتشينو) و(فوكس) وسواهم من جوقة البروتستانتية. كلمة «جوقة» كانت تبعث فينا الضحك لأنّ أولئك السادة لم يكونوا قبيحين وحسب بل جوقة من القبيحين، وكنا نقول إنّ القبيحين البروتستانت هم كالفن، وهو لا بدّ أصلع، و«توثينو» و«فوت». فقد كان الخبز الفرنسي في بلباو يسمى «فوت»[٢٠].

٢٠- ترجمتُ كلمة CORIFEOS بكلمة «جوقة». والكلمة الإسبانية مؤلفة من مقطعين: CORI وتعني «جوقة» وFEOS وتعني « قبيحين». ومن هنا تندرّ الكاتب وأقرانه على زعماء البروتستانتية وممثليها ودعاتها. تندروا أيضاً على (كالفن) بأن دعوه calvo (= الأصلع)، وعلى (سوتشينو) بأن دعوه tocino (= شحم الخنزير)، وعلى (فوكس) بأن دعوه Fot وهي كما قال المؤلف التسمية التي يطلقونها على الخبز الفرنسي في بلباو.

-١٠-

سأتحدث الآن عن أخلاقنا وقواعد تربيتنا وحقوقنا محاولاً قدر الإمكان فصل ما يظهر منها عند الأطفال، بوصفها سمة من سمات مجتمعهم وعنصراً مميزاً له، عن تلك الأخرى التي يلقنهم إيّاها آباؤهم ما أن يبلغوا سنّ الإدراك.

لقد شغلت شخصيّة البعبع الخرافية في التطوّر الداخلي الحميم للنفس البشرية، وما زالت، حيّزاً يفوق حدّ التصوّر. أمّا عذارى (فستال)[٢١] المنقطعات إلى عبادته فهنّ المرضعات والمربيات. البعبع هو روح الظلمات، يبسط من خلالها مجساته الخفيّة ليمنع دموع الطفل من أن تسيل. إنّه مرعب لأنّه يهدد من دون أن يضرب؛ يفعل ما كنّا نتغنّى به في واحدة من ألعابنا: يتوعّد ولا يضرب! وهذا هو المرعب في الأمر.

يتخفى البعبع تحت ألف شكل ويتسمّى بألف اسم، لكنّ نفَسه يبقى وظلّه الذي يحيط به يظلّ، ليهزّ الضمير من أعمق أعماقه.

فالطفل يكره الظلام ويخافه. ولكي تتمكن المرضعات من ضبط حركة الطفل والتحكّم بسلوكه فقد زرعن الظلام بكائنات غريبة غامضة. ففي الظلمة قد يتعثّر الطفل فيسقط وتدق عنقه؛ والظلام يحمل

---

٢١ - Vestal عذارى فستال هن كاهنات الإلهة (فستال) والمكلفات بالحفاظ على النار المقدسة مشتعلة بحسب الأساطير الرومانية...

معه كل مآسي العمى. الحجرة المظلمة هي جحيم مسكون بالفنتازيا التي تحمل بين ثناياها البعبع في شتّى صوره. وفي الحجرة المظلمة يغمض الطفل عينيه ويدير وجهه إلى الحائط كي لا يراه البعبع. لكنّه لا يفتأ يرى البعبع، أو بالأحرى، لا يكفّ البعبع عن النظر إلى الطفل. وكلّما كان الظلام أشدّ كانت الرؤية أوضح.

شبيه بالبعبع عندي كان (الباباو) والمرموط. كان المرموط رأساً من الكارتون -بحسب ما عرفت فيما بعد-لتعليق القبعات النسائية، موضوعاً فوق خزانة في حجرة مظلمة، لم أكن أستطيع المرور بالقرب منه من دون أن أشعر بالخوف. وكانت مجازفتي ليلاً للوصول إلى نهاية ممر الدار في شبه ظلمة تبعث فيّ الخوف أيضاً بسبب انعكاس زجاج باب الصالة.

المبدأ الغيبي الأول الذي ترسّخ في وعينا هو إذن مبدأ سيّئ، مظلم ومهدد، يذكر ظهوره بمقولة (ستاتشيوس) من أنّ الخوف هو صنيعة الآلهة[٢٢]. الحجرة المظلمة تحوّلت فيما بعد إلى الجحيم، ومن البعبع خرج الشيطان والربّ.

في المقابل كان أثر الموت علينا قليلاً. الطفل يشعر بأنّه مخلّد لا يموت؛ أو أنّه خارج نطاق الموت والخلود؛ يشعر بأنّه خالد أبدي، لأنّه يعيش اللحظة التي تمرّ كاملة. يسمع الآخرين يتحدثون عن الموت، وربّما يرى آخرين يموتون، يقتل حيوانات، لكنّه لا يفهم الموت. وهو حين يحكي عن الموت يحكي عنه كما يحكي عن أشياء أخرى لا يفهمها.

حين يتكشّف لنا الموتُ لأوّل مرّة نعيش لحظة مهيبة، نشعر حينها بأنّ لا مفرّ من الموت. أتذكر الانطباع الذي أحدثه في نفسي موت

٢٢- Stacio من أشهر شعراء روما في القرن الأول الميلادي.

(خيسوس كاستانييدا)، أحد زملائنا في المدرسة. تغيبّ عن المدرسة لأيام، وعلمنا أنّه مرض مرضاً شديداً وأنّ حالته سيئة، وكنّا نتحدث عن ذلك ونعلّق. قال بعضنا إنّه سيموت من كثرة ما يدخّن، بينما لمّح آخرون إلى سرّ الإثم، الرذيلة الانفراديّة المبكرة. وعلمنا ذات يوم، مأخوذين بخوف غامض، بأنّه مات. دعينا إلى الدفن وذهبنا بملابس أيام العطلة. كنتُ أحمل شريطاً أبيض من أشرطة التابوت. سرنا وسط الشارع، كما يحدث في الاحتفالات العامة الكبرى، وليس على الرصيف كما نسير في العادة، ترمقنا نظرات المستطلعين الشاردة، ونحن نؤدي ذلك الطقس المقدس. حين وصلنا إلى منطقة (لاس كالثاداس) صعوداً إلى مقبرة (مايّونا) – كانت المقبرة في بلباو تقع في مكان مرتفع، في نهاية درج طويل–، اضطر الذين كانوا يحملون التابوت من المقدمة أن يرفعوا أيديهم، بينما وضعه الذين كانوا في المؤخرة على أكتافهم. وراحوا يتبادلون الدور من وقت لآخر. حين وصلوا إلى فوق فتحوا التابوت وتمكنّا من رؤية جثمان زميلنا وصديقنا. لا أتذكّر الانطباع، لكنّي أتذكّر المظهر، ومن المظهر أحكم على الانطباع. لا يفارقني منظر (خيسوس) المسكين: كان شاحباً اللون متيبّس الوجه مغمض العينين متشابك اليدين، ممدداً في تابوته وقد ألبس أفضل بدلاته استعداداً للرحلة الأخيرة. بل لقد ألبسوه حذاءه كي لا يذهب حافياً. وتذكرت كم من المرات رأيته يدخّن خفية وكم من الأحيان سمعتُه يتحدّث عن أمور قبيحة. لا أدري إن كانت تلك النظرة ساهمت في ألّا أدخن ولا أحاول التدخين قط. قطعوا شرائط التابوت وأعطونا إيّاها: شرائط بيض مع حافات مذهّبة. بعد سنوات من ذلك ظهر لا أدري في أيّ درج من دروج البيت ذلك الشريط وقد اصفرّ لونه، كما اصفرّ بياض أبعد ذكرياتي عن الانطباع الذي ولّده الموت فيّ وأكثرها قداسة. مسكين خيسوس!

قلتُ إنني لم أجرّب التدخين في حياتي، وتلك هي الحقيقة. لكنّي أذكر النفور الذي شعرتُ به ذات يوم حين ألحّ عليّ بوّاب البيت أن أسحب نفساً واحداً من السيجارة التي كان يدخنها.

أمّا موضوع سرّ الإثم، وهو ما كنّا ندعوه نحن بممارسة الأفعال الشائنة، فأفضّل السكوت عنه وتجاوزه. كان أولئك الصبيان الذين يحثّون الآخرين على الإثم يسببون لي رعباً حقيقيّاً. ما زلتُ أذكرُ الضحكة الشيطانية التي كان يطلقها (ساباس)، الذي سأتكلّم عنه ساعة الحديث عن توزيع المجموعات، حين رآني وقد شحب وجهي وأبعدتُ عينيّ وهو يعرض عليَّ أن أتطلّع إلى صورة كان يحملها، وبي من الخوف أكثر مما بي من الخجل. كان قلبي يحدثني بأمر خطير. عن الخطايا الكبرى والكبائر يتحدث كتاب اختبار الضمير، لكنّي وجدت كلماته غامضة. أمّا ملاحقة الفتيات فيبعث على السخرية أكثر مما يبعث على الخطيئة. كانت تقع مجادلات حول إن كان قول هذا الشيء أو ذاك خطيئة أم لا، وكنّا نعود إلى المعلّم ليفصل بيننا.

ما كنّا نفهم إلّا أشياء معينة بسبب التأثير الغامض للتحكّم. كنّا نقول إنّ صبيّاً يتحكّم بصبيّ آخر حين يمارس عليه إيحاءً قويّاً لا يستطيع هذا التهرّب منه، ويروون مثالاً على ذلك التحكّم الذي كان أحد الصبيان يمارسه على آخر فيجبره على لعق أحجار ملوثة بملح البارود الذي علق بها من أثر الماء الملوّث الذي يمرّ من بينها.

-١١-

كانت الصيغ التي نستخدمها في تعاملاتنا ومعاملاتنا وعقودنا وتبادلاتنا وصفقاتنا التافهة مهيبة إلى حدّ التدين-إذا ما فهمنا الدين، كما يفعل الكثيرون، على أنّه طقوس ليس غير-. في تلك التعاملات كنّا نشهد آلهتنا على أمانتنا، كما كان يفعل الوثنيون، وكنتُ أتذكّر ذلك كلّما قرأتُ في هوميروس عن أبطاله من (أخائيا) أو من طروادة وهم يتضرّعون إلى الآلهة ويشهدونها على عهودهم ويحذّرون من نزول غضبها على كلّ حانث بوعده.

يقول أحد ما شيئاً فلا يصدقونه، ويؤكد هو قوله ويصرّ الآخرون على عدم تصديقه، فيرسم صليباً بسبابتيه ويقول: أقسم بهذا! يصمت الآخرون أمام ذلك القسم المهيب فيصدّقه بعضهم ويكتفي بقسمه بينما يهتاج الآخرون، وهم الفريسيون[٢٣]، ويصيحون: «انظروا ماذا فعل...!» أو يقولون: «يا للخطيئة...!».

صيغ أخرى كنّا نستعملها تذكّرني بالصيغ التي يسير عليها القانون الروماني لإضفاء الأهمية والقيمة الشرعية الكاملة على العقود والمواثيق. يهبُ أحدهم شيئاً لزميله من دون ضجّة ولا إعلان، ثم لا يلبث عقد الصداقة أن ينفرط بين الاثنين فيطالب الواهب الموهوب له

٢٣- Fariseos هم طائفة اليهود الذين شككوا برسالة السيد المسيح بينما آمنت بها طائفة أخرى عرفت بالصدوقيين...

بإعادة ما وهب. كان هذا الأمر يقع مراراً، لأنّ الأولاد كانوا يلعبون لعبة عقد الصداقات وحلّها، ثمّ إعادة ربطها والعودة إلى فسخها. «لعبة الشراكة» كان يعني أن يؤلّف صبيان أو ثلاثة شركة يمتلكون فيها مشتركين قديسين أو طوابع أو ثروة مشابهة أخرى. وحين تنفضّ اللعبة يستردّ كلّ شريك ما له في الشركة.

فأنا إذن أقول إنّ الهبة المجردة ما كانت تفهم على أنّها هبة مطلقة وإلى الأبد، بل هي هبة مرهونة بدوام الصداقة بين من وهب ومن تلقّى، ولكن إن تصافح المتعاقدان عند إتمام الهبة أو الصفقة أو أيّة معاملة ثمّ جاء ثالث ليمثّل بيده ما يشبه حركة الفأس التي تقطع ليفضّ تماسك الأيدي، في هذه الحالة وبتلك الحركة الطقوسية تكتسب الهبة أو الصفقة درجة القطعية. وإذا حدث في هذه الحالة – وحتّى في حالات الهبات البسيطة من دون طقوس احتفالية–أنّ الواهب طالب بالهبة مستنداً إلى أنّ من حقّ المالك الأول نزع ما أعطى – وهو مبدأ غريب من مبادئ عدالة الأطفال، التي لا تعرف معنى للبتّ والدرجة القطعية–، وأنّ الأضعف معرض لإعادة ما تلقّى، يهتف:

سانتا ريتا المباركة
ما أُعطي لا ينتزع
بورق وماء مبارك
في السماء أنت مكتوبة...

إن أعطيتني إياه، فإلى الجنّة؛ وإن نزعتني إياه فإلى النار.

في مرّات أخرى يقال: «من يعطي ثمّ يأخذ فمصيره النار». لأجل ذلك كنّا نستخدم الجنّة والنار، وهو تقريباً ما يستخدمهما لأجله الكبار.

من المسائل التي طالما تجادلنا حولها هي عائدية الشيء الذي يعثر

عليه اثنان منّا في الشارع أو في الحقل، هل هو لمن رآه أوّلاً أم لمن التقطه؟ كان الأقرب إلى العدل في نظرنا هو قسمته على الاثنين، فإذا كان شيئاً لا يقبل القسمة فالحلّ هو التشارك به أو حيازته في شركة توصية. لكنّ أحقّيّة المالك الأول في الشيء بالقوّة له رسوخ شديد في روح الطفل. ومن الشائع أن ينتظر أن يغادر الآخر المكان ليحتله هو، وحين يعود محتل المكان الأول لقضاء أيّة حاجة عارضة، يعود ويطالب بمكانه، يقال له: «من سافر إلى إشبيليا أضاع كرسيّه»[٢٤]، فيردّ عليه الآخر: «ومن عاد وجده».

كلّ هذه النزاعات كانت تحلّ في النهاية عن طريق مشاجرة باللكمات يراعى فيها، كما في كلّ منازلة ومبارزة، قواعد الفرسان. لن أنسى واحدة من المنازلات الشهيرة تلك بيننا والتي كانت مادة للحديث لوقت ليس بالقصير.

٢٤- يشير هنا إلى مثل شائع معروف نصّه بالإسبانية: Quien fue a Sevilla, perdió su silla

-١٢-

أمّا لويس - أضعُ له الاسم لمجرد التسمية- فكان شقيّ الشارع وفتى الحارة جسارة وتوعّداً، جخّافاً فشّاراً حقيقيّاً. ما كان أحدٌ من أترابه أو من أصحابه يقدر عليه، فقد كان يتجرّأ حتى على الكبار. ومنذ أن فرض سيطرته على (غيّرمو) - هنا أيضاً أضع اسماً لمجرد التسمية - لم يظهر من يقدر على مواجهته في نهره وزجره ولا من يستطيع تحمّله والصبر على تجاوزاته. كان هو من يتحكّم بتوزيع مجموعات ألعابنا ويتسلّى بإخافة بنات الحارة أو بوضع البعر في أفواههن حين يفتحنها وهنّ يغنين، قاصداً إغاظة إخوتهنّ وإثارة حفيظتهم. يا لبذاءته ويا لقذارته! كان يسيء معاملة المسكين (باكو) ويفرض سيطرته عليه. فيأمره بإتيان كلّ ما يخطر على باله من شناعات وفظاعات وصولاً إلى فعل كلّ ما هو بذيء وقذر، وما كان على المسكين، الخاضع الخانع، سوى أن يصدع لأمره. كان لويس يدخل في كلّ مكان وهو يردد عبارته المألوفة: قلنا بلا كلام!

وحين يسهو أحد وينسى نفسه فسرعان ما يسمعه عبارته:

- اسكت وإلّا فسأورّم خديك ضرباً...!

كان الآمر الناهي. أمّا عن غلاظته وثقل دمه فحدّث ولا حرج!

لم يكن يعامل (إنريكي) المسكين، (إنريكي) الأهبل، إلّا بصفعه

وهو يقول له: (إنريكي)، انفخ! فكان (إنريكي) ينفخ خديه فيصفعه ويضحك. وفي مرّة من المرات أجبره على أن يأكل التراب ويشرب الحبر.

كنّا جميعاً نمقته ونحنق عليه!

ضرب لويس (غيّرمو) ذات مرّة ضرباً مبرحاً فلزم هذا الصمت وسكت على الإهانة، لكنّه أقسم في نفسه على الانتقام: سأمهل هذا المتوعد، إنّه ساقط لا محالة! أمّا صبيان الحارة فراحوا يحثّونه ويحرضونه كما يحرّضون الكلب:

– اهجم عليه! اهجم عليه!

ويقصّون عليه القصص ويلّغونه الرسائل.

– يقول إنّك تخاف منه!

– أنا؟ نعم...أخاف...

– يقول إنّه قادر على هزيمتك...

– نعم، هذه أمانيه!

– يقول إنّه إذا غضب...

التقى الاثنان في حقل (الكامب) صباح يوم ربيعي دافئ؛ كانت الأرض مبلولة من مطر الليلة البارحة. الحيوية تحتدم في بدنيهما، والأذرع تغريهما بالضرب وقلوب أصحابهما تتنبأ بموقعة حامية بينهما.

حين يتقاتل الفتيان فلأنّ بدنيهما يطلبان منهما القتال، وما السببُ المعلن إلّا حجة تتخفّى بها تلك الرغبة الملحّة في القتال؛ الإرادة هي ما يخلق الأسباب. كان بدنا لويس و(غيّرمو)، يحفّ بهما الربيع، يدعوانهما إلى التقاتل والتضارب.

دخلا في جدل حول إن كان أحدهما أو الآخر هو من أسقط جعراناً

بضربة حجر. ولكن من المعلوم، بحسب (تيرسو دي مولينا)[٢٥]، أنّنا، أهلَ (بثكايا)[٢٦]، لسنا كثيري الكلام لكنّنا شديدو الفعل.

كان الجعران على الأرض مقلوباً على ظهره يرفس بأرجله الست، يناشدهما أن يجنحا إلى السلم، بانتظار أن تحسم من أجله وفوقه مسألة السيطرة على الحارة.

– نعم، أنتَ...أنتَ لا تجيد إلّا الانتهار والوعيد!

– أنا؟ أنا أتوعّد؟ إذا أعطيتك واحداً...

وتصنّع أنّه ينصرف باستهانة وتكبّر، ثمّ التفت:

– اخرسْ ولا تستفزّني!

– عجباً! تستفزّ... –هتف واحدٌ من المتفرجين – تستفز... قال تستفز...تستفز...! يا لك من كاذب! ليقولوا عنه إنّه...

كان يستخفّ من الكلمة، ويحثّه. وبدأ القتال.

– هيّا، اضربه!

– أخرسه!

– هل تخاف منه؟

– أنا أخاف منه؟

– بلل أذنه!

– أبصق عليه!

– ادعوه مملّاً!

– استفزّه، هيّا، استفزّه!

ضحك الجميع من عبارة «استفزّه!»، فقد وجدوها مضحكة؛ احمرّ وجه لويس واقترب من المتكلّم الهازئ ليؤدبه.

---

٢٥ – Tirso de Molina مؤلف مسرحي إسباني مشهور عاش بين ١٥٧٩ و١٦٤٨. من أشهر مسرحياته «خادع إشبيلية».

٢٦ – Vizcaya واحدة من محافظات إقليم الباسك.

– دعه! – صاح به (غيّرمو).

– وسأؤدبك أنت أيضاً إن أكثرت من الصراخ!

– تؤدبني؟

دفعه لويس دفعة قوية فردّ (غيّرمو) عليه بمثلها، تبع التدافع تلاكمٌ وتضارب. لقد بدأت المعركة. كان المتفرجون يقفزون حبوراً، وكان أحدهم يصلّي من أجل (غيّرمو) وهو يردد بصوت خفيض: «ليته يكسب...ليته يكسب. آمين...ليته يكسب...».

وتفرقا لشحذ الذراع وتفريغ شحنتها بقوة أكبر. كانا في البداية يضعان يديهما على مكان الجرح وينتظران لردّ الضربة؛ ولمّا سخنا وداخلهما الحماس ما عادا يكتفيان بتجنّب الضربة بل صارا يسعيان إلى تسديدها إلى الخصم؛ ازدادت الهجمات من دون توقف ولا كلل. وواصل الصديق صلاته وابتهالاته: «ليته يكسب...ليته يكسب...ليته يكسب!».

– ضع له قدمك!

سقط الاثنان أخيراً على الأرض المبلولة، وكان لويس في الأسفل، فسحقا الجعران الذي كان يصلّي بأرجله الست من أجل السلام وأطبق (غيّرمو) بركبتيه على ذراعي خصمه، وبينما كان لويس يجاهد للتملّص، خاطبه (غيّرمو) مهمهماً، والعرق يتصبب منه وقد احمرّ وجهه وتلألأت عيناه من فرح ومن غضب:

– هل تستسلم؟

– لا! – يرد عليه الآخر بصوت منهك، فيبادره بلكمة على فمه.

– هل تستسلم؟

– لا! – ولكمة أخرى. وهكذا استمرّ حتّى تدفق الدم من أسنانه.

في تلك اللحظة صاح أحد المتفرجين: أغوا...أغوا...أغوا![٢٧] كان فرّاشَ المدرسة، الذي تسلل إلى المكان، كما يفعل النمر الصيّاد، بدعوى أنّه ضلّ الطريق. وفرّ الجميع من الحقل على عجل، أمّا الفرّاش فقد لوّح من بعيد بعصاه مهدداً متوعداً بعد أن رأى الفريسة تهرب منه.

دخل الجميع إلى الشارع وهم يحفّون بالمنتصر، الذي كان لاهياً عن صبيّ كان يقول له: لقد صلّيت من أجلك! لقد صلّيت من أجلك! بعد قليل دخل المهزوم متجهماً، ينزف من فمه وأنفه، وقد كساه الوحل وهو يهمهم:

– سيسقط! سيسقط!

وما أكبر البطانة التي صارت تحفّ بـ (غيّرمو) منذ ذلك اليوم!

رقص الجميع في الشارع ابتهاجاً؛ فما عادوا يخافون المقيت، بل صار في مقدورهم أن يقولوا له: لقد غلبك (غيّرمو)! كان الجميع مسرورين لأنّهم غيّروا سيّدهم. بينما المهزوم يردد:

– سيسقط! سيسقط!

هكذا تعلّمنا الإحساس بالعدالة وبالانتقام. إحساس يتلخّص في: إن ضربتني ضربتك ثمّ السلام!

أذكر في هذا المجال زميلاً لي في المدرسة كان حين يضربه أحدهم يعدّ الضربات ثمّ يردّها للآخر مضيفاً إليها واحدة، ليتقدم عليه ويستوفي حقه منه، حتّى لو كانت تلك الضربة المضافة لمسة إصبع على ثياب المعتدي. حتّى إذا ضربه المعلّم ردّ عليه بالمسّ على سترته بعدد الضربات التي تلقاها من عصاه.

٢٧– صرخ المتفرج Agua...Agua...Agua (= ماء)، لكنّها هنا اختصار لكلمة Alguacil أو Aguacil بلفظ الأطفال وتعني «فرّاش» أو «آذن» لأنّ المتفرج كان يقصد لفت انتباه الجميع إلى قدوم فرّاش المدرسة أو آذنها.

يقال إن هذا هو أصل العقوبة، لأنّ العقوبة، شأنها شأن العطسة، ما هي إلّا ردّ على فعل. فحين تتجرأ ذرة من الغبار على الحنجرة تعاقبها الحنجرة بالعطاس عليها.

-١٣-

هنا أجد مناسباً الحديث قليلاً عن الأثر الذي أحدثه فينا المجرى المألوف للحياة والمجتمع الذي نشأنا في أحضانه، عن أثر ما هو استثنائي ضمن المألوف الدارج، عن تلك الحفلات والحوادث التي تحدث كلّ سنة، عن المستجدات المنتظرة المبرمجة، عن أعياد الميلاد وأعياد الملوك والكرنفال والأسبوع المقدس وسان خوان ومصارعة الثيران والاصطياف إلخ.

الحياة اليومية التي نعرفها مُملّة للصغار وللكبار على السواء، تشعرهم بالضيق وتبعث فيهم النعاس والخدر - وما أفظعه من خدر! -فكأنّهم يبحرون في سفينة من التقاليد مسلّمين قيادهم للماء، أمّا الحوادث التي لا نتوقعها، الحوادث التي تفاجئنا وتأخذنا على حين غرّة، فوقعها تراجيدي في نفوس الجميع صغاراً وكباراً. وأجمل شيء في ذلك هي تلك التوليفة بين ما هو روتيني مألوف وما هو جديد حادث، بين ما هو متوقع وما هو طارئ، توليفة تتحقق في ما هو غير منتظر سلفاً وما هو جديد روتينيّاً، في تلك الحفلات، في تلك الحوادث التي تهلّ كلّ عام، وفي تلك الأحداث التي ننتظرها كلّ سنة لنجترّ ذكراها من بعد. إنّها بمثابة الشواخص والإشارات الدالة على طريق كلّ عام. كنّا ننتظر أوّلاً عيد الشموع[٢٨]، ونفكّر في طريقة الذهاب إلى القدّاس حاملين

٢٨- Candelas ويسمّى أيضاً عيد تطهير العذراء.

الشمعة المزيّنة، بعد ذلك تأتي الكرنفالات بصخبها وضجيجها تحت رذاذ المطر البطيء وفوق الوحل، ثمّ تحلّ أيّام الأسبوع المقدّس بمواكبه ثمّ عيد الثاني من أيّار ثمّ عيد القربان ثمّ ليلة سان خوان ومشاعل النار ثم الصيف وحفلات مصارعة الثيران، ثمّ زيارة القبور في يوم الأموات ثمّ أعياد الميلاد، ثمّ ليلة رأس السنة، ثمّ رأس السنة الجديدة ثمّ عيد الملوك مع هداياهم للأطفال. ثمّ تبدأ الدورة من جديد مع عيد الشموع وهكذا كلّ سنة بمستجداتها القديمة.

ماذا أحدثكم عن احتفالي بأعياد الميلاد؟ كانت احتفالات منزلية، عشاء أطول قليلاً من المعتاد، أمّا الجديد فيه فهو حضور مدعوّ بيننا، ضيف من الأقارب البعيدين المقطوعين، وحين صرتُ أكبر سنّاً بدأتُ أذهب معه في اليوم التالي، أي في يوم الميلاد، إلى المقهى، بصحبة أصدقائه. كان ذلك الضيف يزورنا في رأس السنة وفي عيد الملوك حاملاً معه هدية يحرص على إخفائها، ثمّ يكشف عنها عند الانتهاء من الطعام، وكان تلهفنا لمعرفة كنه الهدية يزيد من شهيتنا للأكل. ألا يساعد الأمل على الهضم؟ كنّا نتطلّع إلى وصول الضيف المدعو كلّ سنة، فلعلّنا نلمح العلبة التي يحملها تحت ذراعه، واكتشفنا ذات مرّة الهديّة قبل الأكل فالتهمنا الأكل التهاماً، بل لقد تخلّينا عن طبق الحلوى. وهكذا فإنّ تحقق الآمال يجعلنا معتدلين في طعامنا وشرابنا.

وماذا أقول لكم عن الكرنفال؟ عن كرنفال الشوارع ذاك، الذي يبعث على الشفقة والرثاء: الأقنعة الوسخة المضحكة، ورجل التين[٢٩]، والقرويون الأبديّون. أمّا احتفالات الأسبوع

٢٩- يشير هنا إلى إحدى فعاليات الكرنفال وفيها يعلّق هذا الشخص تينة جافة بخيط مربوط إلى قصبة ويطلب من المتسابق أن يعض التينة ويأكلها من دون أن يمسها بيده. وفي هذه الأثناء يغنّي «رجل التين» أغنية يقول فيها: «هيّا إلى التين. هيّا إلى التين. بفمك نعم. بيدك لا».

المقدس، أمّا مواكبها، فكانت أكثر إثارة وروعة، وكنّا ننتظرها بشوق أكبر.

كان كلّ منّا يرى أنّ مواكب الأسبوع المقدّس في بلدته هي الأفضل وهي الأكثر شاعريّة من سواها، لأنّه يرى معاناة المسيح ممثلة فيها تمثيلاً حيّاً. أمّا تلك التي كانت تشهدها مدينتي بلباو قبل عشرين عاماً فكانت الأكثر هيبة وغموضاً وعمقاً من بين كلّ ما شهدته منها وما سأشهده.

كانت المواكب تقام في الليل المنوّر كالشموع، في شوارع مدينتي السبعة القديمة، التي كانت تبدو شعاباً حضريّة لمضيق عميق، بين البيوت التي أضيئت شرفاتها، تحت السماء المظلمة.

كنّا نتعشى قبل وقت العشاء، بسرعة ومهرولين، للظفر بمكان في شرفة بيت من بيوت الأصدقاء، بين سيقان الكبار وممسكين بالدرابزين. هذا ما كنّا نفعله نحن، أمّا صبيان المدارس العادية أو صبيان الشوارع فقد كانوا يتسلقون سياجاً في هذه الناصية أو تلك.

كان الناس بين سائح في الشارع يهمهم ويتأمل الإنارة، ومنتظر على الرصيف.

وتأتي المواكب! تظهر الرايات أوّلاً وطوابير المؤمنين يحملون الفؤوس، يسمع طرق خفيف: إلى الوراء! إلى الوراء! إلى الوراء!، ثمّ تظهر من الشارع المظلم الأجسام المكوّرة أو المشاهد، محمولة على أكتاف رجال يرتدون عباءات طويلة سوداً، يضربون على الأرض ضرباً موزوناً بالعصيّ التي يتكئون عليها حين يتوقفون للاستراحة. أمام كلّ جسم مكوّر رجل، وهو رئيس الحمّالين، يسير خلفهم مثل جندي الاستطلاع، ويطرق بالمطرقة على بدن المحمل حين يريد أن يتوقفوا. وحينها يظهر من تحت الأجسام المكوّرة صبيان يحملون قِربَ النبيذ

لسقاية الحمّالين الذين هم في أمسّ الحاجة لها لشحذ قوتهم وحمل صليبهم عبر شوارع مدينتي الحبيبة، بلباو الربّ.

كنّا نحسب وزن تلك الأجسام. كان الأثقل بينها مشهد القبض على يسوع المسيح في بستان جثسيماني[٣٠].

يا لها من مشاهد، يا إلهي! مشاهد عنيفة صادمة، مستلهمة من لوحات الإيطالي (لوكاس جوردانو)، في أوضاع مسحوقة، وجوه منقبضة أو قبيحة، إنّه المنحى الأخير لمايكل أنجلو في تصوير مشاهد الألم. كانت شخصيّة (آناس) هي أشهر شخصيات الأجسام المكوّرة وأكثرها شعبية. يظهر الفتى (آناس) عاري الساقين وركبته في التراب يبسط ذراعه نحو يسوع المسيح وهو يجلد، ساخراً منه مستهزئاً به؛ شخصيّة أخرى كان ذو السروال الأحمر، الذي يحمل بوقاً ملتوياً ويسير أمام الربّ والصليب على كتفه، ليختفي في ظلمة شارع (آرتيكايّه) من دون أن يكفّ عن النفخ في بوقه الأخرس.

كان الربّ يصلّي في بستان الزيتون، قبالة شجرة حقيقية، بعباءته البنفسجية، بينما استلقى القديس بطرس قريباً منه. وبما أن أشجار الزيتون لا وجود لها في بلدي، فقد كان يستعاض عنها بشجرة غار يعلّق البرتقال بين مصابيحها، لإضفاء مظهر طبيعي عليها. عند حافات المحمل مصابيح أخرى لإضاءة الرب ولبثّ الحماس في الأولاد المشاركين في مشهد البستان، وهم من أبناء الحمالين. كم كنّا نغبط أولئك الصبية ونحن ننظر إليهم من الشرفات. كان من الممتع أن تكون واحداً من صبيان المدرسة، من أولئك الذين كانوا يهربون للسباحة في قناة (لوس كانيوس). بالقرب من صبيان

٣٠- مكان كائن في جبل الزيتون اعتقل فيه الجنود الرومان السيّد المسيح بعد وشاية يهوذا بمكانه.

المشهد طرحت ملابس ألصقت برؤوس حواريين لتمثّلهم وهم نيام.

ويصل مشهد العشاء الأخير، وإزاء تلك المشاهد تنبعث في نفوسنا فصول العذاب التي كنّا ننصتُ إليها بخشوع في القداس. في العشاء الأخير يظهر القديس بطرس الذي عرضت أغاني أعياد الميلاد مقابل رأسه وزنه ذهباً. لكن، يا إلهي، لمَ يحظى رأس القديس بطرس الأصلع بهذا الثمن الباهظ؟

في الجمعة الحزينة يأتي من بعد العناصر، شيء مهيب وجليل في رمزه ومعناه؛ أربعة فرسان من النبلاء مسودون وقورون يجرون على الأرض أربع رايات سوداً – تمثّل عناصر الماء والتراب والهواء والنار – بعد نزعها من ساريتها. آه! فليس ممكناً أن نشاهد كلّ يوم أربعة فرسان وقورين وهم يجرّون رايات في الشوارع.

ثمّ يأتي الفريسيون، الذين لم يكونوا إلّا جنوداً رومانياً، وعليهم دروعهم وخوذهم، ولبس بعضهم نظارات.

بعد ذلك تصل مريم الحزينة والقديس يوحنّا؛ تضع مريم الحزينة عليه ملابس الحداد، وقد صلّبت ذراعيها، ولمع وجهها من دموع غزيرة تتلألأ على ضوء الفؤوس الخافت. ثم يأتي مشهد الدفن. وعند انتهاء الموكب يحملون الوالدة الحزينة إلى كنيسة القديس يوحنا وهناك يدخل الجميع بفؤوسهم، ويضعونها عند أسفل المذبح، في مواجهة الجمهور، وينشدون صلاة مرتلة، وتملأ الأصوات الممتزجة المكان حيث تنتهي جميعها في صوت واحد.

موكب آخر من المواكب المهيبة كان موكب عيد القربان، حين يكون الوقت نهاراً والفصل ربيعاً، وحين تكون كستناء هند الآرانيل في زهورها وحين يكون عطر الزيزفون، بالقرب من القديس نيقولا،

على أشدّه. كان من المثير رؤية الفؤوس تتلألأ في ضوء النهار ولا تضيء!

في المقدمة كان يسير (جيستو)، بسترته الحمراء، وهو يعزف بصفارته ويضرب على طبله، يتبعه الموكب. وما أروع البازيليكا! وهي مظلّة واسعة أو خيمة ميدان، بأربطة حمر وصفر، يحملها رجال يدخلون إليها يتقدمهم ذلك الرجل المصفّر الطبّال ذو السترة الحمراء. ثمّ يأتي وعاء القربان، الذي يمرّر الفلاحون أبناءهم من أمامه لعلاجهم لا أدري من أيّ مرض، يُحمل في عربته ببطء، تحت مطر من أوراق الورد التي كانت النسوة والأطفال يلقون به من شرفات المنازل. وبين مسافة وأخرى نُصب مذبح يتوقف عنده الموكب لينشدوا أمامه نشيداً دينيّاً قصيراً.

ما أجملها من ذكريات حميمة دافئة! وكم تتجدد حياتي في تذكر ذلك الموكب الربيعي في عيد القربان في بلباو مدينتي، هذا الموكب الذي لم أشاهده من سنوات وسنوات طويلة! كان يجري في شارع (بيدباريتا) وقت الربيع، أذكر ذلك جيداً. من الشرفات ينزل مطر الورود فوق القربان المقدس، وفوق روحي، التي ما كانت تريد أن تبرح طفولتها. من السماء تنزل ورود الربيع التي عادت عليّ لاحقاً بأزهار وأشواك.

عن فصل الصيف والاصطياف سأتكلم في مكان آخر. أمّا عن مصارعة الثيران فلا أريد أن أقول شيئاً. أمّا الاحتفال الأكبر في نظرنا فقد كان كرنفال العمالقة ذوي الرؤوس الكبيرة، الذي كتبت عنه بإسهاب في كتابي (عن بلدي).

-١٤-

علينا أن نضيف إلى هذه المستجدات التي كانت تطلّ علينا كلّ عام مستجدات حقيقية، من قبيل مناسبة التناول الأوّل وأوّل زيارة قمتُ بها للمسرح إلخ.

لا أذكر عن يوم تناولي الأول إلّا القليل، بل لا أذكر شيئاً تقريباً. وكم من الوقت والجهد ينفقان لإعدادنا لتلك المناسبة، وكم يحشون رأس الطفل بوعود وتطمينات لا يحتاجها لأنّه لا يشعر بخوف ولا بضيق، وكم يوحون له ويمنّونه حتّى إذا حانت ساعة الحقيقة، وقليلاً ما تقع في الواقع، بهت الطفل وبدا بارداً غير مكترث. أذكر فقط اللقاءات التمهيديّة في غرفة سادن كنيسة القديس يوحنّا، الصبية والبنات معاً، جالسين على الأرض، هنّ بجدائل وملابس قصيرة يجاهدن لتغطية ما يمكنهنّ من سيقانهنّ. ثمّ، عند الخروج، حين نحاول إزعاجهنّ والظهور رجالاً أمامهنّ بتصنّع ازدرائهنّ والاستهانة بهنّ. ويلاحق أحدنا إحداهنّ حتّى ليبدو وكأنّها تحمله خلفها، وضفيرتها تتلألأ ملقاة على ظهرها.

أتذكّر بقدر أوضح واحدة من الأمسيات، ربّما كانت المرّة الأولى، التي ذهبتُ فيها إلى المسرح. جلستُ في مقصورة في صحبة عائلة صديقة لعائلتي. كانت عرضاً لمسرحية «أنطونيو دي ليبا»، أذكر منها فقط سيدة وبدلة قديمة، بدلة حداد سوداء، تبكي وهي جاثية عند قدمي

فارس يرتدي حذاءً مشرّطاً وسروالاً فضفاضاً. كانت المرّة الأولى والأخيرة التي أرى فيها سيدة تبكي وهي راكعة عند قدمي رجل.

في مرّة أخرى من المرّات الأولى التي ذهبتُ فيها إلى المسرح شاهدتُ مسرحية «فقراء مدريد»، التي لم أرها ثانية، وكلّ ما أتذكره هو نوع من خشبة مسرح داخل خشبة المسرح، حجرة في قعر بيت فقير. وقد أحدث ذلك في نفسي أثر المسرح داخل مسرح وفتح عينيّ عليه.

لكنّ الحدث الحديث حقّاً، غير المتوقع حقيقة، الذي ترك أعمق الأثر في ذاكرتي، كان القصف الذي طال مدينتي بلباو في عام ١٨٧٤، وهو العام الذي دخلتُ فيه إلى الثانويّة. كان ذلك العام نهاية طفولتي وبداية مرحلة شبابي.

كان عمري عشر سنوات حين عنّ للكارليين قصف بلباو، وكانت تحت حصارهم منذ عيد جميع القديسين عام ١٨٧٣[٣١].

أذكر جيداً يوم بدأ القصف في الحادي والعشرين من شهر شباط، وكانوا قد أعلنوا عنه، لكنّ الكثيرين لم يحملوا الإعلان على محمل الجد. كنتُ أنا وأختي الكبيرة في منظرة بيتنا في شارع (لاكروث)، بانتظار ما قد يقع؛ وسقطت واحدة من أولى القنابل التي أصابت المدينة على بعد بيتين أو ثلاثة منّا. ساد الهرج والمرج وأغلقت الحوانيت أبوابها، وجاء من يحاول مساعدتنا وأنزلونا إلى دكّان الحلويات، حيث اجتمع كلّ سكان البناية. كانت بعض النسوة يبكين بينما راح الرجال يستمدون العزيمة من شدّ عزيمتهنّ.

٣١- الكارليون هم أتباع كارلوس دي بوربون الذي أشرنا سابقاً إلى ادعائه بحقه في عرش إسبانيا (ملاحظة رقم٦). أمّا عيد جميع القديسين فيصادف الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر وفق التقويم الكاثوليكي.

حينها بدأت ما أحسبها واحدة من أمتع مراحل حياتي وأجملها. في أقصى ثنيّة من ثنايا وعيي وذاكرتي يظهر قصف بلباو حدثاً بطوليّاً موغلاً في القدم، على حدود عصر ما قبل التاريخ الضبابيّة، ويبدو فيها الكارليون بقايا مشوشة من متحجرات وماموثات وماستودونات تنتمي إلى عصر تكويني. من المناسب أن أقول إنّني لم أرَ كارليّاً، أقصد جنديّاً من جنود صاحب الجلالة الطامع بالعرش، في بدلة محارب إلّا على سبيل التمثيل في عيد القديسين، وإلّا بعد أن انتهت الحرب. ولكي أكون دقيقاً فقد رأيتُ أحدهم وأنا في شارعنا بعد أن رصدته بناظور طويل – من تلك التي يطلق الإنكليز عليها اسم «الأنبوب الفلسفي». كان يحفر حفرة في تلّة (كنتانا) في (آرجاندا)، وكانت أزرار بدلته المذهبة تلمع من انعكاس أشعة الشمس.

طوبى لوقت لم نتردد فيه على المدرسة إلّا أياماً قليلة!

أمضينا معظم الوقت أثناء القصف في مخزن حانوت للحلويات يملكه أعمامٌ لي، وفي معظم الوقت بإضاءة اصطناعية حتّى وقت النهار. هناك كنّا ننظم جيوشاً من طيور الورق يتقاتلون مع بعضهم في حقل مسيّج بعيدان الثقاب داخل قفص مخصص لصيد الجداجد معدّ للإضاءة من جانب واحد، على اعتبار أنّه ضوء كهربائي هدفه استكشاف ميدان العدو.

ما أغرب المنظر الذي كانت المدينة تبدو عليه! ما عليك إلّا أن تنظر إلى كلّ تلك المتاريس من الألواح والأكياس والجلود والعوارض الكثيرة لتقوية المباني وإسناد البناء، مع أننا كنّا ممنوعين من المخاطرة بالخروج بعيداً عن بيوتنا.

وماذا عن القنابل؟ بعد سماع الناقوس، وبعد أبواق الإنذار، كنّا نشعر بها قريبة، فكأنها تسقط فوق رؤوسنا، كانت تحملنا في الأيام

الأولى على الانبطاح أرضاً والانتظار ملتصقين بها لنكون في حرز من انفجارها. وحين نكون في البيت، كنّا نهتزّ باهتزازه ثمّ نعود إلى الحياة، حتّى إذا انفجرت القنبلة، وعرفنا أنّها انفجرت في شارعنا، خرجنا لالتقاط الشظايا وهي بعد حامية كاوية.

من بين الأنقاض المكدسة في وسط الشارع كنّا نستخرج ظروف المقذوفات لنقصف بها، وقت الهدنة، الحوانيت المهجورة. وكان من جرّاء ذلك الوضع ظهور ما يمكن أن نعدّه ضرباً من الحماس القتالي بين صبيان المدينة، وتشكّلت منهم فرق مشهورة.

هل من المتعة الدخول في كلّ يوم إلى كنيسة مقنّعين فنتسلّق مذبحها ونصعد إلى منبرها ونحن نلعب الغمّيضة؟ هذا ما فعلناه في كنيسة القديس يوحنّا أثناء القصف، وكنّا نأخذ مواشير الزجاج المتناثر من الثريّات المعلّقة لنرى من خلالها الهيكل بألوان قوس القزح.

منحونا وقتاً لالتقاط الأنفاس، بضعة أيام من الهدنة، ففتحت المدرسة أبوابها، ولك هناك أن تسمع الأخبار والتعليقات التي كان يأتي بها كلّ واحد. فمنهم من تفاخر بأنّ عشر قنابل أو اثنتي عشرة قنبلة سقطت بالقرب من داره، وردد عبارة «نعم! إنّهم يحلمون!...»؛ ومنهم من قال إنّه شاهد بأمّ عينيه أحدهم يطفئ قنبلة بالتبول على صاعقها؛ ومنهم من سمع أنّ الكارليين حفروا، كما تحفر حيوانات الخلد المجدّة جحورها، تحت المدينة نفقاً كبيراً وبأنّهم سينبعون من تحت الأرض من حيث لا يحتسب أحد وبفعل ساحر مدججين بالسلاح. ومنهم من أكّد بأنّهم قريباً سيغرقون الشوارع مندفعين في موجات تذكرهم بحواجز الأوتاد الرهيبة التي كانت تحمي نقطة «الموت» الحصينة وأعمدة الدخان السحرية التي كانت ترى من (ميرابيّا) بحسب قول الناس. وما أكثر ما كان يروى ويقال!

لقد تطرّقتُ إلى ذكرياتي وأنا بعدُ طفل عن قصف مدينتي بلباو في روايتي «السلام في الحرب»، لذلك ليس من المناسب العودة للحديث عنها هنا. سأشير فقط إلى أنني شهدت في يوم الثاني من أيار، وأنا أقف على دكّة في جادة (الآرينال)، ما زلت أذكر مكانها، دخول القوات المحررة بين دموع وهتاف. كانت واحدة من تلك المشاهد التي تهبط إلى أعماق الطفل لتستقر في روحه جزءاً من أرضيته الدائمة وتربته الروحية، من تلك التي تغذّيها الذكريات وتقويها بعد سقوطها مثل أوراق الخريف اليابسة، لتخرج أوراقاً ربيعية يانعة مسكونة بالرجاء والأمل.

القسم الثاني

-١-

يحدد قصف بلباو نهاية العصر المتقدم من حياتي وبداية عصرها الوسيط. لا أتذكّر مما سبق هذا الحادث إلّا القليل المتفرق؛ لكنّي أمسكتُ بعده بخيط تاريخ حياتي.

في السنة الدراسية ١٨٧٥/١٨٧٦، وكان عمري آنذاك أحد عشر عاماً، انتهت الحرب الأهليّة ودخلتُ إلى ثانويّة (بثكايا).

ولا شكّ أن بلوغ المرحلة الثانوية يمثّل لحظة كبيرة. فالثانويّة بالنسبة إلى البعض بداية ارتداء السراويل الطويلة، وهي في نظر آخرين عصر حمل الساعة، وهي عند الجميع تقريباً بداية المرحلة الحرجة، مرحلة المراهقة والبحث عن خطيبة، وإن رأى البعض فيها مرحلة النزوع إلى المعرفة.

ذهبنا إلى الثانويّة لنتعلّم لغة القساوسة في القدّاس، لنتعرّف على ما مرّ بالعالم من أحداث، ولنتقنَ الجمع والضرب بالحروف وليس بالأرقام كما في المدرسة، ولندرس أسماء الحشرات والنباتات في العالم، ولنكون كباراً ناضجين، وليعاملنا الأساتذة بصيغة «حضراتكم»، ولنأخذَ دروسا خصوصيّة، ولنسيرَ في الشارع متأبطين الكتب.

لم تخمد جمرات الحرب الأخيرة إلّا بحلول كرنفال عام ١٨٧٦، حين وصل المُدّعي بالحق في عرش إسبانيا إلى فرنسا. فقد كانت الحرب، حين دخلتُ الثانوية في تشرين الأول من عام ١٨٧٥، ما

تزال مستعرة. كانت تلك السنة هي السنة التي سبقت القصف، وما زال بناء المدرسة الثانوية قائماً في شارع البريد، وإن شغلته فيما بعد مدرسة القديس لويس، بعد أن اتخذوا من بنايتها مستشفى عسكريّاً.

كانت الدراسة في أثناء الحرب يسيرة وممتعة، فالقوات المحاربة بين دخول وخروج، وأخبار الحملة اليوميّة تبرر التغيّب. فإن سمعَ صوت النفير لواحدة من الفرق وهي تدخل إلى المدينة صدر لنا الأمر بالانصراف. وإن انتصرتْ تلك الفرقة في (إستيّا) أمرنا أيضاً بالانصراف.

في ذلك البناء الواقع في شارع البريد سجلوني في الصف الأول لغة لاتينية وجغرافيا. كان أستاذنا في اللغة هو دون (سانتوس بارّون)، رجل عظيم الجسم، وكان هو ودون (آليخو تريساريو) متخصصين باللغة اللاتينيّة. وعلى شاكلة ما يحدث في جميع المدارس الثانوية، فقد كنّا ندرس اللغة على يد متخصص فذّ ومتمكّن من اللاتينية، ونقول عنه إنّه واحد من أفضل من يجيد اللاتينية في إسبانيا، بل كان بيننا من يضيف بأنّه خير من يجيدها في العالم، أمّا الغاية في الإطراء فيبلغها من يؤكد قائلاً بأنّ طلاقة لسان دون (سانتوس بارّون) في اللاتينية لا تعدلها إلّا طلاقة لسانه في القشتالية.

كان في دون (سانتوس) شيء من معلّم اللغة اللاتينية القديم، وكان يوحي بالحدّة والتشدد. ما زلتُ أحتفظ ببقايا من الأثر الذي كان يحدثه فيّ سماع ذلك الرجل الكبير، العجوز، الطويل البدين والممتلئ، ذي الشفتين المتدليتين والسترة الطويلة، وهو يلفظ بصوت بطيء متأنٍّ أمثالاً وتعابير سوقية لاتينيّة رنّانة. أحفظ منها قولهم الشائع: «الكلام المكرر يولّد الضجر»[٣٢].

٣٢- هو باللاتينية: Verba repetita generant fastidium.

ذات صباح، وعقب أيام قليلة من بداية السنة الدراسيّة، أخرج المعلّم من تحت سترته جدول التصريف فداخلني الحماس، فعلى ذلك الجدول تستند بوابة العصر القديم وفي ثناياه يكمن مفتاح اللغز في موضوع الرفع بـ (a) والإضافة بـ (ae) إلخ.

بين زملائي كان (سابا)، زعيم عصابة الصبية الشهيرة، التي كانت وقت انتهاء الحرب تلفّ شوارع بلباو القديمة والدروب ودوائرها وهي تنشد:

عصابة سابا، تورون، تون، تون

عصابة سابا، تورون، تون، تون

لا تعرفُ الخوف، نار!، نار! إلخ.

هزّت الحرب روح الجميع، صبية وبنات؛ ونفخت من روحها في الأولاد الغريرين. كان (سابا) و(آثولا) و(آثكونه) هم القادة البارزين؛ تراشق بالحجر وبالأسلحة أو برصاص رشاش ملفوف بجلد كالكرات ومربوط بحبل ليطير، بل كان من التراشق أن تطرق على كبسولة القدح في الخرطوشة، وكانت كثيرة آنذاك، بحجر فتنفجر على الأرض.

كانت الفتيات ثائرات متمردات أيضاً، ولا سيّما فتيات شارع (إيتورييده)، اللائي أعلنّ الحربَ على الآنسات.

وكنّا نحن، بين الدمار والخراب، نحوّل الحرب إلى لعب ولهو. أوَلم يفعل الكبار ذلك؟ مباركة هي روح الأطفال التي تتخذ من الحياة لعبة ومن العالم استعراضاً، ومباركة وهي تستخرج العسل من كلّ واقع مرير!

كان احترامي لزميلنا (سابا) كبيراً، وإن كان احتراماً مشوباً بالخوف. لم تنمح صورة برنيطته من ذاكرتي، إذ كنتُ أجلس إلى جانبه. ازداد تأثيرهَ فيّ حتّى انقلب الاحترام خوفاً، خوفٌ من ذلك

الذي تشعر به إزاء قوة شيطانيّة. أراد ذات يوم أن يسخر من سذاجتي فأخرج كرّاساً وأراني رسماً احمرّت له وجنتاي وتسارعت لرؤيته دقات قلبي. أشحتُ بوجهي وأظنّ أنني حين شعرتُ بفعله الشيطاني فهمتُ سبب تزعّمه للعصابة. أمّا هو فقد سخر بالطبع منّي.

درستُ اللاتينية باندفاع، ولكن سرعان ما نال التعب منّي. في الأيام الأولى أغوتني جدّة اللغة rosae ،rosa، وخصوصاً الإضافة في حالة الجمع، rosarum، وهي الحالة الأكثر موسيقيّة، لكنّ تلك القوائم الطويلة وجداول التصريف شقّت على روحي مع زوال متعة البداية وإخفاقي في ترجمة القدّاس.

وهكذا كانت قوائم الأفعال الشاذة مصدر عذابي الأكبر، فقد كانوا يلزموننا بحفظها عن ظهر قلب، وهو عندي من قبيل تعلّم جدول اللوغاريتمات من دون معرفة استعمالها.

كانوا يريدون أن نتعلّم في فصلين قصيرين الكثير ممّا يعين على الكتابة باللاتينيّة، وليس كما يحدث في هذه الأيام، إذ ينصبّ الاهتمام على الترجمة من اللاتينية إلى القشتاليّة وليس العكس. لقد أضعتُ وقتاً ثميناً رائعاً استهلكتُ فيه الكثير من طراوة دماغي ونشاطه.

لا شكّ في أنّ مرحلة الصبا مرحلة سعيدة، مع ذلك، فإنّ ذكرياتي عن ذلك الدرس، عن ذلك العجوز الطويل المسودّ، عن ذلك الجدول وتلك الأفعال الشاذة، هي ذكريات حزينة.

لم ألحق قطّ بركب الطلبة الأوائل المجتهدين، فبدأتُ أكوّن في نفسي قناعة مفادها أنّ الفتية الذين يجتهدون في كلّ شيء لا ينفعون في شيء، بل هم كالدجاجة التي تأكل كلّ ما تصادفه، حبّاً كان أم حجراً.

لكنّ أملي في الوصول إلى الصف الثاني أبقى على اندفاعي حيّاً. وأبقى عليه حيّاً الانتقال من العناصر المجدبة القاحلة إلى الجمال

الأخّاذ، الذي امتاز به، بحسب (بارّون)، الكلاسيكيون، فضلاً عن الولوج إلى ميدان التاريخ. في ذلك الوقت كنتُ أفقد صبري حين أرى كيف أنّ الإعراب وعبارات من مثل «حوّله إلى المبني للمجهول» أو «أتبع البناء باسم الفاعل» كانت تحول دون وصولنا إلى نهاية قصّة يوسف وأخوته الذين باعوه بيع السماح.

عن (بارّون) كنّا نؤلّف المئات من الحكايات لتلطيف جوّ الدرس وإضفاء مسحة شاعرية هزلية عليه. كنّا نقول إنّه كان يذهب يوميّاً للتسوّق ويعود إلى بيته بنصف سمكة ملفوفة في ورق، وإنّه يضع حبّات البطاطس في قبعته وحين يرفعها للتحية تتساقط تلك الحبّات، وإنّه حين يمخط يمخط في ورقة يخفيها في منديله، اقتصاداً وتوفيراً، وإنّه يستخدم لأجل ذلك الأوراق التي يعطينا إيّاها، ومن هنا كرمه معنا بالورق.

كان مدرّسنا للجغرافيا يدعى (كارّينيو). أمّا ذكرياتي عن دروسه فقليلة، وكلّ ما أذكره عنها أنّها كانت تجري في صف كبير ومضاء.

في داخلي كان يتأجج شوق طفولي للمعرفة، وتشوّق إلى الانتقال إلى صف آخر، وشيء من الحزن المبكر مشفوع بفقر مادّي.

أتممتُ السنة الأولى بلا تميّز ولا تفوّق. تعلّمتُ شيئاً من اللاتينيّة، وعرفتُ أشياء عن أنهار الصين وجبال تركستان وإمارات الدانوب، بل عرفتُ عدد السكان الذي بلغته كبريات مدن الكرة الأرضيّة قبل عشرين سنة من ذلك الحين.

-٢-

حين انتقلتُ إلى الصف الثاني من مرحلة الدراسة الثانوية كنتُ أحملُ إحباطَ السنة الأولى وأملَ السنة الثانية معاً، فهذا يولد من ذاك، ومن خيبات الأمل يتغذّى الرجاء كما تتغذّى أوراق الربيع الأخضر من الغطاء الدهني الذي تركته أوراق الخريف الساقطة على لحاء الشجرة.

واصلنا درس اللغة اللاتينية مع (بارّون) والتاريخ مع (كارّينيو).

في هذه السنة، ١٨٧٦-١٨٧٧، انتقلنا إلى المدرسة الثانوية في المحافظة، وكانت بنايتها، بلا شك، واحدة من أجمل المباني في بلباو. كانت تلك البناية وبناية المستشفى، بعد بازيليكا الربّ سانتياغو، هي المباني العامّة الوحيدة التي تستحقّ المعاينة في بلباو آنذاك. كان التشدد البسيط المصحوب بشيء من الضبط يناسب تلك المدرسة، وكانت الساحة الواسعة التي تتقدمها توسع في مساحته بنائها. ما أمتع الصعود من تلك الدرجات متأبطين الكتاب! وما أحلى التجوال بين ممراتها المضيئة!

أتذكر الفضول الذي كنّا نحسّه ونحن نجول بنظرنا، في طريقنا إلى المرحاض، بين الحديقة النباتيّة المحرّمة، وقاعات الفيزياء والتاريخ الطبيعي، ونتساءل: متى سنصل إلى هناك!

كان للبناء، كما الحال الآن، درجان: درج رئيس مخصص للأساتذة والأشخاص الوقورين الكبار، وآخر مخصص للطلاب والصبيان. عند

الخروج من الدرس، بعد ساعة ونصف من الجلوس المضني والانتباه المصطنع أو القسري، كان انطلاقنا ممتعاً مدوّياً. ننزل من على الدرج المخصص لنا في حشد، متدافعين صائحين صارخين «حظّاً سعيداً»! موجهين كلامنا للفرّاش الرائع (خوليان).

كان (خوليان)، شأنه شأن جميع الفراشين والمستخدمين والبوابين الذين عرفتهم، طيباً، فما من طبع لا يرقّ أو يعتدل حين يكون التعامل مع فتية صغار. كان بديناً هادئاً. ما زلتُ أتذكّره وهو يتجوّل في الممرات وفي يده كتاب «أزهار القديسين» ويسألنا: «ما معنى ego sum pastor bonus?»[٣٣]. حين كنّا ننزل بالطريقة التي وصفت كان يفقد هدوءه، يتوتّر ويتوسّل ويهدد وما من مجيب. بل لقد وصل الأمر به ذات يوم، وهو الطيب الهادئ، مثال الفراشين الطيبين، إلى أن يصيح: «الضربة منّي والموت سواء». لم أنسَ كلماته تلك. وحين توفي تساءلتُ في وقت من الأوقات إن لم يكن إسرافنا الطفولي قد قصّر في عمره ودفعه إلى الانتقال قبل أوانه إلى الدار التي كان ينتظره فيها إخوته أولئك الذين كان يطالع حياتهم بمثابرة في «أزهار القديسين». لكن لا؛ فقد توفي في سنّ جيدة، ناضجاً ومهيأ لدخول الجنّة.

أنا كنتُ من بين أكثر الطلبة سكوناً، لكنّ ذلك النزول المتعجل، تلك الصيحات، ذلك التدافع النابع من الحريّة المستردّة، ذلك الهرج والمرج كان يبعث في قلبي المرح والسرور بدليل أنّ ذاكرتي لم تختزن غير ذلك الاندفاع الصاخب من الصف طوال هذا الوقت.

كان السنة الثانية من دراسة اللغة اللاتينية أصعب وأشقّ من السنة الأولى. وكم عانيتُ من القول بأنّ «المبتدأ أوّلاً مع جميع توابعه ثمّ

٣٣- عبارة لاتينية معناها «أنا راعٍ صالح». أمّا كتاب «أزهار القديسين» Flos Sanctorum فهو كتاب يورد سِيَر القديسين وكراماتهم.

الفعل مع كلّ ظروفه إن كان مشفوعاً بظروف» إلخ. ما أروع الأمسيات التي أضعتها وأنا أبحث في ذلك المجلد الكبير من قاموس (رايموندو ميغيل)! وكم أرهقتُ بصري! كنتُ أنا وصديقي (ماريو) نقتل أنفسنا بحثاً وتنقيباً في القاموس الملعون الذي كان يعطي لكل مفردة لاتينيّة أربعة معانٍ أو ستة أو عشرة أو اثني عشر معنى بالقشتالية. معانٍ بالجملة، من دون نظام جيني ولا منطقي ومن دون شرح. كنّا نأخذ جميع المعاني، مع ذلك لا نفهم كلمة واحدة من النص الذي نترجمه. يجب أن نرتّبه، لكنّ ترتيبه، وإن عرفنا المعاني، صعب، أمّا ترتيبه من دون معرفتها فهو ضرب من المستحيل. هم يقولون لنا: الترتيب أوّلاً ثم الترجمة، هراء في هراء. كنّا نضطر إلى سؤال العريف، وهو في العادة أكثر جهلاً منّا بالموضوع؛ كان علينا أن نخمّن المعنى، فندخل هكذا في الحدس والتخمين، والمصيبة أنّك إن أصبت التخمين وعدتَ إلى الدرس بقطعة جيدة الترتيب جيدة الترجمة، واجهك (بارّون) بقوله: «من أطعمكَ إياها؟»

كانت النصوص التي كنّا نترجمها في العادة مأخوذة من (نيبوس) و(سالوست) و(يوليوس قيصر) ومخصصة للأولاد، وهي على قدر كبير من التعقيد. ولا أذكر من كلّ ما ترجمناه منها غير حكاية «الأسد الشكور»[٣٤].

طرحوا عليّ فكرة أن أطالع الكتّاب اللاتينيين. كنتُ أتخيّلهم وهم يكتبون من دون تكلّف ولا تصنّع، يسطرون أفكارهم بالترتيب نفسه الذي نسطر فيه نحن أفكارنا، ثم يتسلّون بعد ذلك بتبديل العبارات وتعقيد الجمل ونثر المفردات هنا وهناك، في عمليات تقديم وتأخير اعتباطية عشوائية بقصد واحد هو إرهاقنا وإجبارنا، نحن أطفال الأجيال

٣٤- هي من مجموعة قصص الحيوان الشهيرة لأيسوب Esop.

القادمة، على أن ننعم النظر ونشحذ التفكير. يا لها من تسلية تلك التي كان يمارسها أولئك الأدباء! تأليف أحجيات! وقد صدّقت ذلك من كثرة ما سمعتُ عن ترتيب طبيعي وترتيب منطقي وترتيب معكوس وسوى ذلك من الأباطيل، لكنّي لم أفهم كيف لا يخطر على بال أحد أن يبسط أفكاره بنسق آخر يختلف عن النسق الذي أبسط أنا به أفكاري.

وماذا عن قولهم بأنّ اللغة اللاتينية هي لغة فلسفيّة جدّاً، وهو كلام فارغ طالما سمعناه؟ كان أحد الأدلة على ذلك أنّ النفي فيها مرتين يعادل تأكيداً، فكأنّ أداتي النفي حين تلتقيان في الجملة تصطدمان لا محالة وتتقاتلان مثل كلبي مصارعة، وعلى إحداهما أن تفترس الأخرى لأنّهما لا تقويان على التآلف والتعايش، وهكذا، مجتمعتين، تفعلان ما لا يقوى نفي واحد مفرد على فعله! دوّرتُ الفكرة في رأسي فوجدتُ أنّ من الخطأ أن نقول: «لا يوجد لا شيء» في مقابل قولنا «يوجد شيء» – كنتُ آنذاك أجهل أصل كلمة nada ومفهومها الأصلي الذي يعني «شيء مولود» أو «شيء»– وأبحث عن عبارة سواها فأقول: لا يوجد!. وكنتُ أضحكُ عند سماعي السؤال: ماذا يوجد ميغيل؟ فأرد: لا يوجد! وقد كتبتُ حول هذه المسألة بعض الملاحظات في كرّاس للأكاديمية الملكية للغة[٣٥].

٣٥– يشير الكاتب هنا إلى مسألة لغوية يستغربها المدقق في اللغة الإسبانية والجديد عليها على السواء. وملخص المسألة أنّ الإسبانية تقول No hay nada وترجمته الحرفية هي «لا يوجد لا شيء» لأنّها تكرر أداتي نفي وهما No وNada (=Nothing). لكنّ كلمة Nada في الأصل لا تعني Nothing بل something ومن هنا فإنّ استعمالها في العبارة الإسبانية المذكورة No hay nada صحيح لأنّها تعني «لا يوجد شيء» أو «لا شيء موجوداً».

المسألة الأخرى تتصل بالفعل اللاشخصي Hay (=يوجد) أمّا سبب استغراب الكاتب فهو استعمال الناس لهذا الفعل في التحية حين يقولون ?Que hay (كيف الحال) بينما ترجمتها الحرفية هي «ماذا يوجد؟». تساؤلات فلسفية حول أمور لغوية دارجة.

هكذا خرجتُ من اللاتينية.

الصف الذي كنّا ندرس فيه التاريخ كان واسعاً مليئاً بالخرائط. كنتُ أتسلّى أثناء الدرس بصنع دمى من الشمع، وقد عاقبني (كارّينيو) مرّة على ذلك بالجثو يومين.

لا أذكر من دروس التاريخ شيئاً وإن كنتُ أذكر شكل الكتاب المقرر، حروفه، طباعته. ولو رأيته اليوم على بعد ثلاثة أمتار لميزته ولقلت: ذاك هو! كانت حركة الأقوام تصيبني بالدوار، أسماء غريبة، استعراض لملوك وحروب، تداخل في القرابات والزيجات والمواريث. يبايعون ملوكاً ويقتلونهم بلا فرصة للحداد على موتهم، ولا وقت للتعرّف عليهم، وكانت الحركة من السعة أنّ المرء ليتمنّى أن يقضى على الجميع بقتلهم في معركة واحدة فاصلة.

لم نصل إلى الثورة الفرنسية بعد أن انشغلنا في بحث عقيم في ما لم يفعله الصينيون والفرس والكلدانيون. أدركتُ في وقت لاحق أنّ الفائدة تقتضي أن ندرس التاريخ معكوساً، أي انطلاقاً من اللحظة الراهنة.

أمّا تاريخ إسبانيا الذي درسناه بتركيز فاق تركيزنا على تاريخ العالم فقد ترك فيّ انطباعاً أكبر، ولا سيّما قولهم «المنصور مزّق طبله في قلعة النسور» ومسألة ظهور القديس يعقوب في معركة (كلابيخو)[٣٦].

٣٦- يشير الكاتب هنا إلى عبارة كان الناس يتغنون بها متندرين على المنصور ابن أبي عامر Almanzor إذ تزعم رواية مشكوك فيها أنّه هزم في معركة قلعة النسور Calatañazor عام ١٠٠٢. أمّا مسألة ظهور القديس يعقوب في موقعة (كلابيخو) فمشكوك فيها أيضاً لأنّ الشك يتطرق إلى المعركة ذاتها، التي زعم أنها وقعت عام ٨٤٤ ضمن حروب الاسترداد المعروفة.

-٣-

أثناء مسيرتي الصاعدة عبر سنوات الدراسة الثانوية كان هزال جسمي وضعف بنيتي مع احتدام ذكائي، في ازدياد. وصفوا لي المشي طويلاً، فصرتُ أمارس تلك الرياضة يوميّاً. ولا أذكر أنّني شعرتُ بمتعة أكبر من تلك التي شعرتُ بها لأوّل مرّة حين خرجتُ من (أوراثورّوتيا)، على الضفة اليسرى من نهر (نيربيون)، وجلتُ من ناحية الجسر الجديد في (بولويتا)، لأعود من الناحية اليمنى. لقد بدأتُ من ضفة وعدتُ من ضفة أخرى! عبرت الجسر الجديد! لا أظنّ أن في وسع الذين كانوا يهربون من المدرسة يوميّاً تقدير حجم المتعة التي أحسستها بعد تلك الجولة.

لم أشعر بمتعة تفوق تلك التي منحتني إياها تلك الجولة سكينة وعمقاً إلّا في مناسبات قليلة. فمع امتلاء صدري بالهواء الطلق النقي، كانت روحي تتنسّم الحريّة، وتتحرر من تلك الأفكار والتحفظات التي تقيدها كما تقيّد المرساة المركب، وتستمتع باستعراض الأحاسيس الشاردة في سلبية هادئة وانبساط مليء بالحياة. تندلق في الحقل، تنتعش وهي تلامس رطوبة أوراق الأشجار، تتمرّغ بالخضرة. الفكر الحرّ يهيم بين شيء وآخر، يمعن النظر في ما يمرّ به ويمرّ معه، يتماهى مع ما هو شارد ويحلم بما يراه. كم هو محزن أن أنتقل من تلك النزهات إلى قاعات الدرس المظلمة!

في عطلة الصيف كنتُ أذهبُ مع عائلتي إلى بيت ريفي كانت تمتلكه جدتي في (ديوستو)، بالقرب من بلباو. كان يوم السفر يوم فرح داخلي. كنّا نستبدل ببيتنا بيتاً نعرفه، وبكراسي بيتنا ببلباو كراسي بيت (ديوستو) المتينة العريضة؛ هناك كانت لوحة يظهر فيها المسيح متوّجاً بالشوك مقيد اليدين مضرجاً بدمه، وهناك كانت أريكة مشبّكة باردة، وهناك كان ما هو أهمّ: مزرعة تزهو بعرائش الكروم وأشجار البرتقال.

ونظلّ في (ديوستو) حتّى بداية السنة الدراسية، حين تنتهي فترة الاعتدال الخريفي. في أيام الأحد كان يزورنا صديق من أصدقاء بلباو لتناول الطعام معنا، فكانت تلك مناسبة للاحتفال.

ما أطيب الأثر الذي خلّفته فيّ تلك الأوقات التي أمضيناها في ربوع الريف هنا، في الضيعة، حيث كان أولاد المدرسة يتندرون على قمصاننا الطويلة! أتذكّر طوافنا منحنين من تحت دوالي العنب الأسود، وقد علقت بوجوهنا خيوط العناكب، وأتذكّر الفضاء الشاسع الذي يسمح لنا بلعب الغميضة؛ والسباحة بين الذرة وتسلق شجرة السفرجل وتأمّل سقوط المطر على الحقل بينما نكمن نحن في ممر البيت نرقب المشهد مستمتعين أيّما استمتاع. فلسقوط المطر في الحقل صورة تختلف عن سقوطه في المدينة، فهو في الحقل أكثر نقاء وجمالاً وحريّة.

ما أحلى الاصطياف في ذلك البيت في (ديوستو). لقد فتح روحي على الإحساس بالحقل. ولن أنسى الأثر العميق الذي تركته فيّ قراءة الرواية البسيطة، رواية «ماري سانتا» لـ (أنطونيو دي ترويبا)[٣٧]، هناك، ليلاً، وأنا أراها تتحدث عن أماكن كان يمكنني أن أشاهدها من ممرّ ذلك البيت، تتحدث عن بيت (إيجيزوري) الريفي الذي كان هناك،

٣٧- Antonio de Trueba (١٨١٩-١٨٨٩). كاتب إسباني من منطقة الباسك.

على مرمى حجر منّي. بدأتُ معها أشعر بمعنى أن تعيش في مكان وقف عليه الفنّ وذكره، وإن كان فنّاً بسيطاً على شاكلة تلك الرواية.

يا لأيّام المزرعة! تخترقها جداول تنقل إليها الماء من فُرضة النهر، حين يبلغ المدّ مداه، فأسيّرُ في تلك الجداول زوارق ورقيّة تقلّ في المزرعة، كما يفعل أبطال (جول فيرن)، حملات المغامرين التي تمضي ليلها في أكـواخ معمولة من الطين. ولطالما ظهرت تلك الزوارق البائسة، زوارق الحملات، هامدة في الوحل مغمورة، بعد ليلة أمضتها تصارع وابل المطر الجارف.

وماذا أتذكّر عن النزول إلى بلباو للذهاب إلى المدرسة، سائراً ورضفةَ النهر؟ كيف انطبع في ذاكرتي نهر (نيربيون)، النهر الأسير بين الحواجز، الذي انعكست على مرآة مياه مدّه الهادئة، بصبغتها المعدنية، حبالُ المراكب التي أطلقت أشرعتها أمام كلّ ريح! رضفة النهر تلك، والدة بلباو مدينتي، تلك الرضفة الرائعة، التي تطوقها الجبال بين ذراعيها وتحميها، كانت شقيقة روحي.

قبل سنوات قليلة زرتُ ذلك البيت لأوّل مرّة بعد انقطاع دام سنوات وأمضيت هناك عصر اليوم. رأيتُ مكانه بيتاً كبيراً فخماً، ورأيت مزرعة العنب والفواكه الدافئة المتواضعة وقد حوّلت إلى متنزه على طريقة الإنكليز. طفر الدمعُ من عيني. فأين منّي ذلك البيت الصغير؟

لقد أوردتُ هنا هذه الذكريات الريفيّة لارتباطها بسنتي الثالثة من البكالوريا، سنة البلاغة.

في السنة الثالثة تلك بدأنا نستخفّ بطلبة المرحلة الأولى، الذين سيمرّون باللاتينية المرعبة التي خلّفناها وراء ظهورنا. ننظر إليهم بترفّع مشوب بالشفقة بينما هم يأتون راضين مطمئنين، يسرعون الخطو، وقد ارتدى بعضهم سراويل قصيرة وياقة بحّارة، وكان ذلك سبباً

لانزعاجنا، فكيف يُقبل في الثانوية أولادٌ صغار كهؤلاء. كنّا نقول: «سيأتون ذات يوم وقد فطموا للتوّ». ولئن انزعجنا من المتأخرين فقد كنّا نغبط المتقدمين، طلبة السنة الأخيرة، الذين كانوا يدخلون فيلمسون الدبّ المعلّق في مدخل قاعة الهيكل العظمي.

كان درس البلاغة يستهويني لكثرة شواهده التي تساق من القريض، أو ما يسمى بفنّ نظم الأبيات الشعرية. أذكر كيف درسنا البلاغة، دروسها الأولى على الأقل، في البيت الريفي في (ديوستو)، في المزرعة، وأنا جالس فوق شجرة إجّاص. فقد أقمتُ بين فروعها سقالة من ألواح خشبية كنتُ أصعدُ إليها وحين أنتهي من الصعود ومن بين الأوراق التي كانت بدأت تسقط – كان الوقتُ ساعات العصر الوديعة في الأيام الأخيرة من تشرين الأول–لأنطلق مكرراً عبارة ما إلى حين حفظها. وسرعان ما أضجر من الدرس فأقلّب الأوراق على عجل لأبحث بين الشواهد عن أبيات (ثوريّا) التي يقول فيها:

لو أنّ صوتي أحلى
من ضجيج الأوراق
التي تهدهدها نسائم
نيسان العاطر...

ما أروع ما كانت ترنّ في أذني لأوّل مرّة موسيقى الشاعر الجوّال! وكيف هزّت شذرات الغناء تلك، التي كانت تنطوي على غموض صورها البسيط وتحجزه، أوراق روحي مع اهتزاز أوراق شجرة الإجاص، متخلصة منها ومحلّقة هناك لتضيع في حقل الذرة، تحت زرقة السماء!

كنتُ أنشد الشعر وأنا أتجوّل في المزرعة، عند سقوط الساعات والأوراق، فيذهب سمعي وراءها.

ألطف من حزن الإوز
أحزاني الأخيرة
وألطف من شدو
البلبل الظريف...

ثمّ أصمت لسماع زقزقة طائر مغرّد بعد أن أسكتته أبيات (ثوريّا) التي أنشدها.

أكثر وقاراً وجلالاً
من صدى السيل
الذي تقطعه من الصحراء
الوحدة الشاسعة...

كانت هذه الكلمات ترفع روحي إذ أتصوّر وحدة الصحراء الشاسعة في تلك المزرعة السعيدة الوادعة بالكروم والذرة والفواكه والعصافير. وأختتم مردداً:

أكثر وقاراً وقدراً
من هدير العاصفة الهوجاء
وهي تحوم فوق البحر اللجي

كم هو لذيذ هذا التكرار في الأصوات! وحين يسمع في الليل، في غمرة صمت الريف، من ممر البيت أزيز بعيد كانوا يقولون إنّه منبعث من البحر، كنتُ أتذكّر صخب العاصفة الهوجاء وهي تحوم وتدور. يا له من سحر ذلك الذي تحدثه فيّ تلك الأبيات في حدّ ذاتها، وهي تلاطف السمع! أذكر المتعة الفريدة التي أجدها في هذه الأبيات اللاحقة، وهي من شعر (ثوريّا) أيضاً، والتي حفظتها منذ ذلك الحين وهي التي تقول:

مرّ يوم، ويوم آخر

شهر ومرّ شهر آخر

ومرّ عام

لكنّ دييغو، الذي سافر إلى فلاندر،

دييغو، لم يعد منها

أبيات يصعب العثور على مثيل لها في قلّة ما فيها من الشعر، فليس في تلك الأبيات شعر. صحيح أنّ (ثوريّا) يرسم حدوداً عليا وحدوداً دنيا إذ يضع أقلّ قدر من الشعر في أكبر قدر من الموسيقى الموزونة.

وبعيداً عن الشواهد، فما هي البلاغة؟ هي حشد من المصطلحات القبيحة من مثل «الميتونومي» و«السينوكدوكي» و«الكنكاتنيشين»...[٣٨]. ولكلّ حيلة من حيلها اسم تتسمّى به. فمن كلمة تضاف إلى البداية أو إلى النهاية أو تحشر في الوسط. ومن كلمة واحدة تكرر في نهاية هذا البيت وفي بداية البيت الذي يليه، إلخ.

أمّا الرياضيّات فكانت من حصّة الرائع دون (إيغناثيو)، الذي كنّا جميعاً نعرفه بلقبه (كاتاوجو)، وهو في ما يبدو، تحريف لكلمة (كاتوجوا) التي تعني باللغة الباسكية «القط الصغير».

كان الجبر يستهويني أكثر من الرياضيّات. ولطالما خضتُ في جدول الضرب ولم أكتسب قط مهارة في القسمة. كنتُ أستمتع بالمسألة حين تطرح، لكنّ حلّها كان يرهقني، وما زلتُ أعاني من هذا.

كم كنتُ أستمتع بحلّ الكميات الجبرية ثنائية الحد أو ثلاثيته! كنتُ أسعدُ إذ تمتلئ السبورة بالعلامات والرموز وبالمعادلات ويفرح قلبي، فقد كنتُ أضع في ما أفعل حواسي الخمس وأشعر بالمتعة التي

٣٨- هي مصطلحات بلاغية تشير الأولى Metonimia إلى الكناية، بينما الثانية Sinécdoque هي المجاز المرسل. أما Concatenación فهي حالة بلاغية تعني التتابع أو التسلسل.

لا بدّ أن يشعر بها جنرال من الجنرالات وهو يتحكّم بعدد كبير من الجنود في استعراض بهيّ أمام أنظار الذين يشاهدونه ملكاً وشعباً. كنتُ أستخرج عوامل مشتركة أو أخفيها، أختصر المعادلات، أحذف وأضع، مفتوناً تماماً بما أفعل. وحين أصل إلى النتيجة النهائية، بعد أن رسمت الحدود الأخيرة عند الطرف السفلي من السبورة، في حروف متلاصقة وصغيرة، وقد غرستُ ركبتي على الأرض، بين سحابة من غبار الطباشير، أرفع رأسي المحموم مسروراً إذ أكتشف أنّ النتيجة التي توصلتُ إليها هي ذاتها التي يذكرها الكتاب. لقد نجحت! محزن أن أمحو ما كتبت!

وما زلتُ أذكر حين قالوا لي وهم يتحدثون عن نظريّة من النظريات: لقد أثبتها (نافيران) – أستاذ الرياضيات الآخر– بطريقة أخرى. بقيت مفكراً وقلت لنفسي: فهناك إذن أكثر من طريقة للبرهنة على النظرية الواحدة!

يخطئ الآباء إذ يعتقدون أنّ الرياضيات هي أصعب المواد التي تدرّس في الثانوية، وأنّ الرياضيات تمثل خير معيار لقياس ذكاء الطالب. الرياضيات هي المادة الأقل سوءاً من حيث طريقة تعليمها لأنّها الأقل تعقيداً، وربّما هي أسهل من سواها من المواد. وهي، من حيث كونها تمريناً، تمرينٌ للذاكرة. كان المتميزون في الصف هم الذين يحفظون البراهين والإثباتات عن ظهر قلب.

وهكذا نجحتُ في الصف الثالث وهيأتُ نفسي للسنة الرابعة، وهي المرحلة التي تركت في نفسي بصمة أكبر.

-٤-

لا أدري إن كان شعوري بأنّ السنة الرابعة من البكالوريا هي الأقرب إلى نفسي هو من باب الوهم الاستذكاري، فقد كانت السنة التي درسنا فيها علم النفس، وكانت أسرار الروح آنذاك أكثر ما يشدّني؛ فقد شدّني أبو الهول منذ صغري إليه حتّى تمنّيتُ أن أموت بين ذراعيه.

درست علمَ النفس والمنطق وعلم الأخلاق على يد القس الطيب الذكر دون (فليكس آثكويناغا)، الذي كان يشيع الفرحة في قلوب الصبيان فيخفّون لتقبيل يده وليتلقوا من طرفه حبّات السكاكر. أمّا الكتاب المقرر فكان كراسة موجزة - وجدتُ في ما بعد أنّها مقيتة - وكانت مثالاً للمادة الجافة اليابسة، وواحدة من تلك الملخصات التافهة التي تعدّ لتسهيل الامتحانات على الطلاب. لا أتذكّر من ذلك الكتيب إلّا عبارات فيها من الدقّة ما فيها من التزوير؛ أمّا عن شرح دون (فليكس) فلا أذكر شيئاً البتّة، لأنّ شرحه كان ضرباً من الترتيل: بسرعة وبصوت خفيض، فلا نحن ننتبه إلى ما يقول ولا هو ينتبه إلى شرودنا. من بين أشيائه، وليس من بين كلماته ولا شروحه، هو ما نحفظه خالداً في ذاكرتنا، نحن الذين تعلمنا على يده، وما أذكره وأنا أمضي لياليّ أقرأ (بالمِس) و(دونوسو كورتيس).

كان دون (فليكس) يشير إلى صفحة من الكتيّب، ونصعدُ نحن الواحد تلو الآخر إلى المنصّة لنردد له الدرس على مسامعه، بينما

كان ينظر هو إلى ما نردد في كتابه المفتوح. ولأنّه كان أعور فقد كان الطلبة الذين لم يحضّروا الدرس يصعدون من الجانب الذي لا يرى منه، وحين يحاول أحدهم التطلّع إلى الكتاب أمامه، كان هو يغلق الكتاب ويلتفت إليه، فإن لم يستطع هذا مواصلة القراءة، أخرج مفتاحاً وصاح: آه، يا لك من صعلوك! ثمّ يسدد له ضربة بالمفتاح على رأسه.

وما أغرب الهيكلية التربوية التي أقامها! هيكليّة تضمّ مجموعة «الودودين» ومجموعة «الزبانية»، وفي سنواته الأخيرة في التدريس ضمّ إليها مجموعة «موكب شطابي».

كان اسم «الودودون» يطلق على أولئك الذين يتصفون في الأيام الأولى من السنة الدراسية ببساطتهم وبشاشتهم وعدم وضوح تصنيفهم. فإن اضطرب حبل النظام ولم يستطع دون (فليكس) تحديد المسؤولين عن الفوضى، كان «الودودن» مخيرين بين أن يدفعوا الثمن أو أن يشوا بأسماء رؤوس الفتنة.

أمّا «الزبانية» فقد أوكل إليهم معاقبة الإساءات الخفيفة للآخرين بالنقر على رؤوسهم بالإصبع وإلّا تلقوا هم ذلك العقاب.

أمّا موكب (شطابي) – وهي قرية من قرى (بشكايا)– فقوامه واحد وعشرون نفراً. كان دون (فليكس)، حين تحلّ الفتنة في الصف وينفرط فيه عقد الانضباط، يفتح كراسة الأسماء، وفيها العلامات على شكل بنادق وسيوف إلخ، ثمّ يشرع، بدءاً من أوّل اسم تقع عينه الكريمة عليه، بالمناداة على واحد وعشرين اسماً ليطردهم من الصف بتهمة ارتكاب خطأ واحد أو يزيد. ولمّا كان الإجراء في نهاية السنة قد شملنا جميعاً، فقد كان أستاذنا يعمد إلى شطب العقوبة وتبرئة ساحة الجميع.

كانت لذلك الراهب الطيب روح طفوليّة. يجد تسليته في الدرس،

أمّا ما كنّا ندعوه نحن في تعبيرنا الطنان «مظالم»، فلم تكن إلّا نزوات. وأحسب أنّ ذلك الصخب الذي كنّا نحدثه صار يروق له ويحلو في سنواته الأخيرة. كان يحبنا كثيراً؛ وكان حبّه للأطفال من قبيل الحبّ الشديد الذي يبديه العازبون وقد بلغوا مبلغاً من العمر. لا شكّ أنّه كان يستمتع، وهو في قفص العصافير ذاك، بسماع هرج صبيانه ومرجهم!

كان الصف قاعة كئيبة، نوافذها مشبّكة بالأسلاك وتطلّ على باحة تفصلنا عن الحديقة، ولمّا كانت الحديقة ترتفع بانحدار، فقد كان الصف معتماً. من مصاطبه القاسية، المحبوسة في ذلك القفص، وعبر تلك النوافذ المشبّكة التي لها شكل مصيدة الفئران، كنتُ أتأمّل شمس العصر التي تبسط شعاعها على أشجار الحديقة، وأترك بصري يجول بين أشجار الكالبتوس المشمسة أو أتطلّع إلى نوافذ دير (لاكروث)، ذلك المحبس الآخر، المشمس من خارجه، بينما ينساب صوت دون (فليكس) الهامس ليضيع في الفضاء الكئيب.

كان الدرس، حين نبلغ التمارين المنطقية ومحاضرات الطلبة، يكتسب نشاطاً وحركة. ينشط القفص وتستيقظ العصافير، وتتردد عبارات تبدأ بـ «وهكذا...» و«ومن ثمّ». وكيف لنا أن نجد الاهتمام البسيط الذي كنّا نضعه في تلك النقاشات! كانت آلية التمارين المنطقية الجامدة الجافة تبدو وقد استعادت الحياة بينما نتابع نحن باهتمام طفولي الـ «أرفض الحجّة الكبرى» أو الـ «أرفض الحجّة الصغرى!».

كنّا في العادة نحمل المرافعات والحجج وسلسلة التمارين المنطقية التي أعدّها لنا المعلّم أو العريف مكتوبة. يُكتب تمرينٌ منطقي... هنا سيرفض الحجّة الكبرى... فأنا أجيزها إذن!. في هذا التمرين الثاني سيرفض الصغرى...فأنا أجيزها إذن! وهكذا البقيّة. كنّا نصل إلى الدرس مع أوراقنا، نبدأ التمرين الأوّل، يرفض الخصم الصغرى لا الكبرى كما افترضنا، ولمّا لم نكن نستطيع أن نقول، من الاستياء

الذي أحدثه فينا ذلك، «هذا مرفوض! فاللعب لا يصحّ هكذا!»، كان على دون (فليكس) أن يهبّ لمساعدتنا. من ناحيتي كنتُ أعرف أنّ مهارتي في المجادلة هي في نفي الحجّة التي تبدو لي أكثر رسوخاً، وهكذا أحرجُ الخصم، وقد أرفض الاثنتين، وعندها تكون الضربة القاضية. أذكر أيضاً أنّنا، أنا وزميلي على مقعد الدراسة، (أندريس)، كنّا نخترع تمريناً منطقيّاً لا يمكن دحضه، صالحاً لجميع المسائل، لننمّي هكذا الغريزة المتمردة على كلّ عقيدة.

أمّا المحاضرات فكانت أكثر جديّة. كان دون (فليكس) يكلّفنا بها قبل أيام، نختار عملاً من الأعمال الكبيرة بعض الشيء ونحفظ المحاضرة عن ظهر قلب، فإن صادفت القبول من لدن المعلّم أمر بأوقية من الحلوى للمحاضر، وأحسبُ أنّ وقع تلك الحلويات على الروح كان يفوق وقعها على اللسان.

في تلك السنة الدراسيّة كان بيني وبين صديق لي نوع من التنافس الطفولي. كان كلّ منّا يسعى لنيل درجة الامتياز الوحيدة التي يقال إنّ دون (فليكس) كان يمنحها. جاء دوره في إلقاء محاضرة وما زلتُ أذكرُ بأيّ اهتمام ولهفة استمعتُ إليه. لم يخطئ في كلمة واحدة. تلقّى الحلويات وأعطاني منها لأذوقها، ولا أدري إن كان قصد إثارتي. كان مذاقاً أثار غيرتي فأمضيتُ الليلة وأنا أشعر بطعم تلك الحلوى مرّاً في روحي، تمرّنتُ على المحاضرة وكررتُ قراءتها، أقرأ فقرة من فقراته على الكتاب ثلاث مرّات أو أربعاً ثمّ أرتلها عن ظهر قلب وأنا أنظر إلى السماء. من سوء حظي أنّني كنتُ أهتمّ كثيراً بالأفكار. هيأتُ محاضرتي، التي كان تدور حول ألوهيّة يسوع المسيح، معتمداً على دراسة جدّيّة لكتاب وجدته في بيتي.

يا لذلك اليوم الذي صعدتُ فيه إلى المنصّة وسط ترقّب الطلاب! إنّ قدرتنا على إحياء واحد من هذه الأيام كفيلة ببعث الشعور فينا بأننا

خالدون. كان قلبي يدق بقوّة وأنا أستعدّ متلهفاً للانطلاق في خطبتي. بدأتُ. «قبل تسعة عشر قرناً...». كان دخولاً بسيطاً ومهيباً. واصلتُ خطابي، ورحتُ أسخن مع التفاف خيط إلقائي في رأسي؛ تكلّمتُ بصوت خطابي عن المسيح والمسيحية، عن دماء الشهداء، عن المعجزات - «المعجزة الأكبر هي تغيير العالم من دون معجزات»-، ووصلتُ إلى موت يسوع، ذكرتُ، أو بالأحرى، تغنّيتُ بقول (روسو): إن كان سقراط مات حكيماً فإنّ يسوع المسيح مات ربّاً؛ وانتهيتُ بين همس الاستحسان، فقد كان الجميع يعرفون التنافس بيني وبين صديقي. أمّا دون (فليكس)، الذي كان قد نام أثناء خطبتي أو كاد، فلا أذكر ماذا قال، بل ودّعني وأخرج كراسه، وسجّل شيئاً ولم يعطني حلوى. وانسحبتُ معلّقاً بين الشكّ والرضا. لم أحصل على درجة الامتياز في علم النفس ولا في المنطق ولا في علم الأخلاق، وكان لها أن تكون الأولى التي أحصل عليها في البكالوريا.

لكنّ تلك السنة أحدثت أكبر انقلاب في روحي، ليس بسبب ساعات الدوام الرسمي، بل بسبب ساعات السهر التي أمضيتها في قراءة كتب (بالمس) و(دونوسو). كان دون (فليكس) يحبّنا حبّاً شديداً لذلك لم يشأ أن يرهقنا بالدراسة، بل كان يكتفي، بسبب سنّه وطبعه، بإعطائنا أربع أفكار دراسية خفيفة.

في السنة الرابعة، وكنتُ حينها في الرابعة عشرة من عمري، وبتأثير من المطالعة الليليّة وأعمال إخوانية القديس (لويس غونثاغا)، تحققت فيّ أولى أزماتي الروحيّة، حين بلغت الروح مرحلة النضج. لا أدري إن كنتُ أستطيع أن أجد الكلمات البسيطة المناسبة لوصف نسمة فجر روحي. فطوبى لمن يستطيع أن ينعش ذاكرته ليستحضر التعبير البسيط عن سنوات رومانسيته! في تلك الأيام كنتُ ألزم نفسي بالبكاء من دون سبب، وأراني فريسة زهد مبكّر، وأجد المتعة في إطالة ألم

ركبتيّ اللتين جثوت عليهما، وأذهب إلى قناة (لوس كانيوس) حاملاً في جيبي ديوان (أوسيان)[٣٩] لأكرر بكاءه على (مورفين) و(رينو) وأبناء (فينغال)، ولأطبقه على (آيتور) العجوز وعلى (ليكوبيدي)، تلك الإبداعات الرائعة للرومانسية الباسكية الفتيّة.

٣٩- Ossian راوٍ ومؤلف مزعوم لمجموعة من القصائد الملحمية الإيرلندية القديمة التي تعدُّ من التراث العالمي.

-٥-

في سنّ معينة من حياتنا، حين تكون للأفكار فينا حدود معروفة ولدرجاتها ألوان متميّزة، وحين يشتدّ عودُ الفكر ويصبح كيانه أقوى وأصلب، وإن كان أكثر قابليّة للكسر منه في الطفولة، وحين يكبر في الذهن بضع من العقائد النشيطة القويّة في وسط من الأفكار الميتة، يكون من الصعب أن يبزغ فجر العقل.

شباب الذكاء كشباب العالم. كلّ صورة من صوره أشدّ فوضى، لكنها أشدّ مرونة وليونة؛ الفرن يغلي بالأفكار، العمل معقّد وسريع، ومقابل كلّ كائن يولد يموت كثيرون، يسقطون وهم في زهرة العمر. وكم من الأفكار يقصف ويجهض مقابل كلّ فكرة تنمو صحيحة قويّة في رؤوسنا وتمدّ فروعها لتهبنا ظلّها وثمارها! وكم منها ينكمش ويضمر! لكنّها لا تضيع. حتّى الأفكار التي قصفت وضمرت لا تضيع.

كنتُ أشغف بآخر ما أقرؤه، وأرى حقيقيّاً في يومي ما رأيتُه غريباً في أمسي؛ تستبدّ بي لهفة قاتلة لفهم المسائل الأبدية؛ أشعر بنفسي كرة تتقاذفها أفكار من هنا وهناك، وبدلاً من أن ينمّي هذا التأرجح المستمرّ في داخلي الشكّ المدمّر، كان يعزّز إيماني بالعبقرية البشريّة ويمنحني المزيد من الأمل في الوصول ذات يوم إلى شمس الحقيقة. وبدلاً من أن أصل إلى ما يصل إليه الكثيرون من أنّ «ما من سبيل إلى معرفة شيء

معرفة دقيقة»، وصلتُ إلى أنّ الجميعَ محقّون، لكنّ المشكلة تكمن في فهم بعضنا لبعض.

كم تأثّرتُ، يا إلهي، حين قرأتُ في السنة الرابعة الثانوي (بالمس) و(دونوسو)، الكاتبين الوحيدين في الفلسفة اللذين وجدتُهما في مكتبة أبي! عن طريق بالمس عرفتُ بوجود (كانت) و(ديكارت) و(هيجل). ما كنتُ أفهم كلمة في (الفلسفة الأساس)- ذلك الكتاب الضعيف بين أعمال (بالمس) الضعيفة- إلّا بشقّ الأنفس، مع ذلك، فقد أصررتُ على قراءته كاملاً بحرص كبير كالذي أعاد الحيويّة إلى جسمي لاحقاً حين التزمت الحرص في تمرينات الجمباز. كنتُ أنام أحياناً والكتاب تحت نظري؛ وكنت، في أحيان أخرى، أتسلّى، وقد تعبت وسئمت القراءة، باللعب بدموع الشمعة وبجمعها بالقرب من الفتيل ليعاود استهلاكها بينما كانت تُستهلك حيوية دماغي في اصطياد أفكار تفرّ منّي.

كلّ ما قاله (كانت) العجوز عن العقل الخالص وبديهياته، والمسائل التي يستخرجها (فيخته) من معادلته A=A، ومنهج (هيجل) حول الهوية بين الكائن الخالص والعدم الخالص، كانت مواضيع تصيب روحي الطرية المجردة من عصا التوازن، متأرجحة فوق الحبل الميتافيزيقي، على ذلك الارتفاع الشاهق، بالدوار. لكنّ ذلك الدوار نفسه كان يحرّضني على التشبّث به والعناد كي أتوغّل في الناحية الخفيّة، اعتقاداً منّي بأنّ كلّ غامض عميق، لأن الخفيّ والغامض هو الأبعد غوراً. كنتُ معجباً بالفلسفة أكثر، فهي شعرُ ما هو مجرد، لا ما هو محدد، ولم أكن أقرأ شعراً من أشعار (بالمس) أو سواه من المؤلفين المكسيكيين، الرومانسيين والبكائين، أو قصيدة (آروكانا) الملحميّة الوعرة، إلّا للاستراحة والترويح.

كان جدل (بالمس) هو ما فتح عيني. وكان في روحه، وهي نوع

من الشراب الاسكتلندي الرخيص، الكثير من الطفولة؛ كان يبسّط كلّ ما ينتقده وهكذا يفوز جدلُه على عرض العقائد المنتقدة.

ثمّ صارت عندي قناعة بأنّ من اتخذ من (بالمس) أساساً لتكوين فكرة عن الفلاسفة الكبار من أتباع (كانت)، لم يصل إلى معرفتهم، لأنّ (بالمس) نفسه ما كان يعرفهم إلّا لماماً، وإلّا عن طريق إشارات وملخصات سيئة العرض. وكما يحدث في ترجمات الترجمات الرديئة من الدرجة الثالثة والرابعة، وما يحدث في أعمال أرسطو التي أنجزت في العصور الوسطى، فقد بقي من عبقريته ما يكفي للترويج ولتحريك مدارس وإحياء أفكار، وهكذا وصل لي عن (هيجل)، مثلاً، الذي كتب عنه (بالمس)، صدى ضئيل وبعيد من سمفونيّة قصيدته الميتافيزيقية العظيمة. لم يمنحني (بالمس) من نفسه غير القشرة، بل قشرة القشرة، ومن هذه ظهر اللب.

كنتُ حينها أدرس الهندسة مع علم النفس، وكانت معادلات الكاتب الكتالاني الرياضيّة تشدّني؛ كنتُ أرى أن فهم الظاهرة يتمثّل في دقّة الصيغة، من دون أن أعي أنّ من الجنون أن نخضع تعقيد العالم الحيّ اللامتناهي إلى معادلات.

وما أعظم البلبلة التي أحدثها في ذهني ذلك الجدل حول طبيعة الزمان والمكان والسبب والجوهر!

حين قرأت نيوتن أحسستُ أنّ المكان هو بسعة الربّ، هذه الاستعارة الجميلة – مباركة هي الاستعارات!– وبدا لي وكأنّ صدر روحي توسّع فرحتُ أتنفّس الهواء الذي يملأ الفضاء الربّاني وأتأمّل السماء التي تعكسه.

كانت (رسائل مرتاب) و(موازنة بين البروتستانتية والكاثوليكيّة) التي كتبها (بالمس) أقلّ إثارة لنشاطي، لسهولة تناولها، لكنّها كانت تثير استمتاعي.

وما أكثر ما كنتُ أجادل الأصدقاء حول البداية الأولى للأشياء والنهاية الأخيرة، ونحن نسير في حقل (البولاتنين)، على امتداد النهر، أو ونحن نطوف المرة تلو الأخرى في الساحة الجديدة المكفهرّة بينما المطر يسقط رذاذاً واصباً! آه، تلك الساحة الجديدة، مسكينة، هندسيّة، ضئيلة، أيّ حلم من أحلامي لم تتلقاه! في الربيع شجرات المغنولية التي ترتفع – أزالوها في ما بعد– حول البركة التي كانت الضفادع المعدنية فيها تتقيأ ماءً دافقاً، كانت تطرح أزهارها الكبيرة المعطّرة العاجيّة، تحنّط الساحة كاملة بينما رفوف العصافير تزقزق ثملة من ذلك العطر. وأنا، أطوف بأروقتها المعمّدة، أزقزق ميتافيزيقياتي ثملاً بعطر الغموض المجهول.

اشتريتُ كراسة، وبها بدأتُ منظومة فلسفيّة جديدة، شديدة التناسق والتماثل، مليئة بالمسائل وبكلّ ما هو محيّر وسحري ومشوّش يصل إلى يديّ. مع ذلك كانت واضحة، شديدة الوضوح. وهذا هو ما يحدث معي إلى الآن؛ كلّما أضفت غموضاً وسحراً على شيء أريد عمله، ازداد هذا الشيء وضوحاً؛ فأنا لا أحسنُ توضيح فكري إلّا حين أريد أن أستره.

ولم أكن كتبتُ حتّى ذلك الوقت بيتاً شعريّاً واحداً! ولا شك أنّ هذا هو السبب في أنّني تخلّيت في ما بعد عن الميتافيزيقيا من أجل الشعر، فالشعر عندي ميتافيزيقيا عميقة ما بعدها ميتافيزيقيا.

أثناء الليل، وبعد أن أنتهي من دروسي، كنتُ أغوص في (بالمس)، يمرّ في ذهني حشد من الأشباح ومشاريع أفكار، في اضطراب غير متجانس، بل ربّما نمتُ وفي رأسي صيغ خاوية وملابس أفكار.

أمّا مقالة (دونوسو) حول الليبراليّة فقد اقشعرّت لها روحي وأنا أقرأ بعض فقراتها. فالإيقاع الخطابي في كلامه وأسلوبه الطنّان

وشطط تلك العقائد في التعبير عن العواطف، وهي في واقعها كئيبة محزنة، كلّ ذلك كان يطرد النوم من عيني. وكيف لا تُحدث تلك الأصداء التي تردد الفكر المتناقض لأستاذه (دي ميستري)، من أنّ العقل البشري يحب الغريب، ولا تلك العبارات التي يمثّل بها الخطيئة الأولى، ولا تلك اللوحة التي تصوّر السلالة البشرية وهي تنزل، مبتهلة ومدنسة ولاعنة ومباركة، في مركب يوشك على الغرق في مياه نهر الأزمنة الهادر، ولا تلك العروض للشيطنة البريئة والصبيانية للطيب (برودون)[٤٠]، أقول: كيف لا يحدثُ ذلك كلّه أيّ أثر في ذهن بدأ كأس زهرته يتفتّح أمام نور الحقيقة!

كانت تلك الكتب، التي وجدتها بالصدفة في مكتبة بيتنا، الخميرة الأولى لروحي. كان هناك أيضاً كتاب (أو لا فيدي)[٤١] «الإنجيل ينتصر»، لكنّي لم أجرّب قراءته، فقد كانت صفحاته تتعبني وقراءته تشقّ عليّ.

لا أتذكّر إلّا القليل عن دروسي في الهندسة، وقد تزامنت مع دروسي في الفلسفة. لكنّي أذكر أنّ أفضل ما درسناه منها كان الصعب فيها، وخصوصاً تلك البرهنة على حجم هرم مقطوع في قواعد متوازية.

كان جسمي يضعف.

---

٤٠ – Pierre Joseph Proudhon (١٨٠٩–١٨٦٥) فيلسوف وسياسي وصحفي فرنسي.

٤١ – Pablo de Olavide (١٧٢٥–١٨٠٣) كاتب ورجل قانون وسياسي إسباني.

-٦-

لا يمكن لأحد الولوج إلى عالم الشعر الإنساني النقي ما لم يكن قد عانى في حياته من أزمة صوفيّة عابرة بقدر قليل أو كثير.

حين تتغذّى الروح عند ولادتها بأفكار سماوية رفيعة، فإنّ هذه الأفكار، وإن لم تبدُ ملائمة لرقّة الطفولة وغضاضتها، تؤثّر على روح الطفل، التي هي كأس الظّرف والنعمة والجمال، بقدر أكبر من تأثيرها على الروح البالغة. وكما يحدث في حالة الشعوب الوليدة، ففي الأرواح التي تتفتح على الحياة يظهر سرّ العالم أكثر جلالاً، وانعكاسات الفجر أكثر قدرة على العطاء حيوية ونشاطاً، وظلال الليل أكثر مهابة. وإذا كانت حياة الإنسان صورة طبق الأصل من حياة الجنس البشريّ وتلخيصاً لها، فليس لنا أن نحسب بين الرجال الحقيقيين من لم يمرّ على الأقل بفترة من التدين الحق، فترة قد تفقده رائحته، لكنّ نسغها الخفيّ سينشطه ويمدّه بالحيوية. الأفكار الأعمق ليست هي التي تنبع من صيغ محددة ناتجة عن عقول رفيعة وأذهان سامية، بل هي التي تتشكّل مثل السحاب في السماء من الأبخرة التي تطلقها القلوب النقيّة ثمّ تنزل من بعد في شآبيب من المطر لتكسو الأرواح المتواضعة بالندى.

انتميتُ إلى جمعية القديس (لويس غونثاغا) الدينية، التي تركت فيّ ذاكرة كاملة وأخدوداً عميقاً. ما زلتُ أحتفظ بخطاب تعييني أميناً لسرّ مجلسها التنفيذي – وهو أوّل خطاب أتلقّاه في حياتي، بهامشه

العريض-، وإلى ذلك الوقت تعود علاقة الصداقة المتينة التي تربطني بمن كان لوقت من الأوقات مديره.

كنّا نجتمع صباح الأحد من كلّ أسبوع، في ساحة التجسّد، في آشوري، وفي معبد هذا الدير كنّا نحضر القدّاس.

كانت الجمعيّة تعطينا ما نفكّر فيه وما نشغل به مخيلتنا. لن أنسى المؤامرات والمناورات التي مارسناها في إحدى مناسبات التجديد للمجلس، حين جرت عملية التصويت في دائرة غريبة عن المعبد. لكن ما بقي راسخاً في الذاكرة هو ما يتصل باجتماعات الستّة.

كان الوقت ليلاً، والمكان هو القاعة المعروفة بـ «الآنخل»، في كنيسة القديس يعقوب. حين دخلنا إلى القاعة شاهدنا جسماً أنثويّاً أسود، يجلس القرفصاء في الظلّ، بالقرب من كراسي الاعتراف، وكنّا نسمع همساً خفيفاً، سعالاً منفرداً. سرعان ما انصرفت النسوة، وراح الظلّ يتمايل في مشيته. تغلغل شيء من ضوء الغروب الذائب المحتضر عبر النوافذ الملوّنة، وجلسنا نحن على المقاعد، وقد امتلأت الروح بتوافه النهار الكثيرة، وبدأت اجتماعات الستّة.

يقرأ المدير أو مساعده فقرة في التأمّل، على ضوء شمعة يتوهّج وحيداً باهتاً في العتمة، تتوقف القراءة، نسمع صوت الأرغن الصغير من ركن من الأركان، فيطلق كلّ منّا العنان لخياله ليحلّق مفكّراً حول الموضوع المطروح أو حول آخر سواه. كان الخيال وليس العقل هو ما يتأمّل ويفكر؛ وهو ما يحدث دائماً. العقل لا يتأمّل، العقل يمضي قدماً، يجري، أمّا التأمّل فهو من الخيال. وما من شيء أجمل من خيال الطفولة، بجناحيه المزغبين، وهو يتأمّل. وعلى صوت الأرغن البطيء الرتيب الحاد، كان خيالي المسكين لا يتأمّل محلّقاً بل يحلم في سكون وقد طوى جناحيه النتيفين وجلس القرفصاء.

وما هو بالتأمّل الصارم لمصير الإنسان أو لغز حياة ما بعد الموت، بل هي رحلات إلى حقول الأحلام المسحورة. من منّا لم يتمثّل في فكرة، من منّا لم يحمل نفسه إلى مسرح روحه ليتفرّج على نفسه في دور الرجل الثريّ الذي يمتلك ثروته، أو في صورة المحارب القوي الذي يقود جيشه والحرب على ساق، أو في هيئة الخطيب الذي يتحكّم بجمهور السامعين؟ ومن منّا لم يحلم مرّة من المرّات بأن يكون قديساً؟

كانت سنّاً لم يكن الذهن فيها قادراً بعدُ على التمعّن في السرّ المروّع للشر والموت والإحساس؛ كانت سنّاً غضّة طريّة، وكان خيالي يسمح لي فيها أن أغفو، يهدهدني شعرُ حياة القداسة الرائعة؛ كانت سنّاً استنشقت فيها عطر الزهر من دون أن أذوق طعم الثمرة. كانت روحي تتغذى عطراً. كانت سنّاً تنساب فيها سكينة الحياة إلى الروح وسط غموض وأسرار ولا يُرى الموت فيها إلّا بعيداً قصيّاً، سنّاً تختلط حدودها مع حدود الحياة، تماماً كما البحر تحت السماء الساكنة التي يجد امتداده فيها.

كنتُ أحلمُ بأن أكون قديساً، وفجأة قطعتْ صورتها عليّ هذا الحلم. كانت ترتدي ملابس قصيرة، وكانت تنورتها تكشف عن ساقين نضرتين، وصدرها ناهداً فتيّاً، وقد ألقت بضفيرتها على ظهرها، وراحت عيناها تضيئان طريقها. بدأت قداستي المنشودة تضعف.

اعتادت عيناي على ظلمة القاعة، وعلى الخروج إلى الشارع، فالهواء والضجيج اللذان يدخلان عبر نافذة الروح يثيران فيها الاضطراب، يعكّرانها، يعيدانها إلى كرنفال الانطباعات السريعة العابرة الذي لا يتوقف؛ لقد بدا وكأنّها تطفو على السطح وتشعر بأسف كبير إذ ترى ذلك العالم الآخر الذي تراه المخيلة وهو يغرق، عالم من السكينة، عالم من بحر بلا شاطئ. كنتُ أحياناً أنزوي، أحاول غلق نوافذ الشرّ،

أعود إلى البيت، أتناول العشاء، ثمّ أستأنف على السرير تخيلاتي إلى أن يغلبني النعاس فأنام نوم الملائكة.

كان أهمّ أيامنا في الجمعيّة وأكثرها وقاراً ورهبة هو يوم القديس (لويس غونثاغا). ما زلتُ أذكر السنة التي دعانا فيها راعي كنيسة سانتياغو، السيد (إيبارغوينغويتيا)، بالحملان مرات كثيرة وتحدث لنا فيها عن علف روحي. استعارات بسيطة ومطروقة لا بدّ أنّه قرأها في أحد الكتب القديمة!

في مواكب يوم القربان كنّا نسير وقد علّقنا في أعناقنا شريطاً تدلّت منه ميدالية، وحملنا فؤوساً لم يكن الضوء المنبعث منها، في رابعة النهار وتحت الشمس الساطعة، يضيء بل يتوهّج نقيّاً شفافاً فكأنّه ينصهر تشريفاً وتكريماً.

كان لنا في تجديد المجلس مناسبة لكلام كثير وتدبّر طويل على مدى أيام، وكانت اجتماعات الهيئة الإدارية حدثاً مهمّاً بالنسبة إليّ، ومهما كان رفعُ محاضرها إلى المدير ليصححها. إنّ كلّ المناورات التي تمارس والدسائس التي تحاك في انتخابات مجلس النوّاب لا تساوي شيئاً إلى جانب ما فعلناه في مناسبة تجديد المجلس ذاك. أنفقنا أمسيات كاملة، ثلاثة أو أربعة أصدقاء، في الحديث عن ذلك بين مواعيد وتحالفات ومؤامرات سرّيّة خفيّة. أمّا أغربها فأظنّ أنّ المذنب فيها كان واحداً من أصدقائي، الذي قرأ جلسات البرلمان، وكان مطلعاً على الانتخابات التأسيسيّة وكان قد قرأ واحدة من خطابات (أولوثاغا)[٤٢].

بعد أن عقدنا المجلس وفزنا في الانتخابات، فوجئنا بالحدث

٤٢- Salustiano Olózaga (١٨٠٥-١٨٧٣) كاتب ومحامٍ وسياسي ليبرالي إسباني.

العظيم. وقع خلاف بينما نحن نناقش مسألة الإعلان عن المبلغ الذي يدفعه كلّ عضو من أعضاء المجلس لخياطة علم جديد؛ كانت المعركة قصيرة، لكنّ عواقبها كانت وخيمة؛ فقد أطلق المدير صوته الممانع وأحدث انقلاباً وفرض رأيه. ألهذا منحنا حق الانتخاب وخرجنا من مجلس وعقدنا جلسات وأعددنا المحاضر وكلّ شيء وصوّتنا فيها؟ ألأجل هذا؟ هل نحن جمعيّة تشريعية أم غير ذلك؟ فإن كنّا كياناً استشاريّاً وحسب، فقد كنّا فائضين عن الحاجة، وإن كانت لنا سلطة للتشريع، فإنّ ما فعله المدير لم يكن سوى انقلاب استبداديّ، اعتداء على سيادتنا. ماذا كان سيقول (أولوثاغا) عمّا فعل المدير؟

ما زلتُ أذكر الغضب الشديد والاحتقار العميق الذي أحدثه في نفسي قول صبيّ وصف فيه أعضاء الجمعيّة بأننا كارليون كبار! وبدا لي ما حدث استهتاراً ما بعده استهتار، وعزوت هذا الحادث، كما عزوت سواه، إلى الجهل المؤسف الذي قرأتُ أنّه يعتري المتهورين الحريصين على الدنيا. ذلك الفتى الذي قال إننا كارليون كبار كان صبيّاً طائشاً ودنيويّاً، إذ لم يجرّب التأمّل وهو يستمع إلى نغمات الأرغن الصغير ولم يقرأ ما كتب (بالمس).

لقد وجدتُ في تلك الجمعيّة، بالإضافة إلى الأحلام الكثيرة الشاردة التي تدعمها مجاميعها وممارساتها، أساس أفكارٍ أكثر دناءة ودنيويّة.

-٧-

ما من سنة مرغوبة، بعد السنة الأولى في الثانويّة، غير السنة الأخيرة. هي السنة الأمتع، لأنّها سنة التجارب، السنة التي ينافسنا عليها تلامذة المراحل الأدنى ويحسدوننا. ففي الفيزياء ألعاب يدويّة، وفي الزراعة جولات في الحديقة، وفي التاريخ الطبيعي معرض للأحجار والحشرات والنباتات.

في السنة الأخيرة يكتمل للديك الرومي وقاره وهيبته. في عطل الميلاد وسواها يتوقّف تلامذة السنة الأخيرة عن الحضور إلى المدرسة رسميّاً، تاركين لتلامذة المراحل الأولى أن يصرخوا ويصفروا عند دخولهم باب المدرسة. وفي السنة الأخيرة يبدأ التفكير في الجامعة، وفي ترك البلدة، وهذا هو المهم.

ما زالت كلمات دون (مانويل)، الفيزيائي، ترنّ في أذنيّ: «ما تفعلونه يبعث على التقزز! حضراتكم تقتلونني! أتريدون قتل أستاذكم؟». فنردّ نحن في جوقة: «نعم، نعم!». ولئن كان هرجنا ومرجنا من مقصّرات حياته – وقد عاش طويلاً – فقد كان ضروريّاً له في سنواته الأخيرة. وليتكم رأيتم التعبير الهادئ الذي كان يرتسم على وجهه حين كان ينظر إلينا في أيام عزّه ومجده، بعد انتهائه من إحدى التجارب بنجاح: تعبير مميّز عن الرضا وهو يتلقّى تهانينا الصاخبة تصفيقاً مدوّياً بالأيدي وضرباً صاخباً بالأقدام. كانت ابتسامة النصر

تضيء ذلك الوجه الذي بدا لي على الدوام وجه عالم. فالعلماء يجب أن يكونوا شيوخاً شيباً طاعنين، وكان وجه ذلك الدون (مانويل) وجه عالم بلا شكّ، وجهٌ شبيه بوجه مستر (تيير)[٤٣]، بسالفيه البيضاوين وبخصلة بيضاء تتوّج جبهته التي تعلو رأسه الذي برز من قبّة قاسية مرتفعة. لن ينمحي بسهولة من ذاكرتي ذلك الوجه الذي طالما رسمته في كاريكاتير.

أمّا إذا كانت التجربة بصريّة فكان دون (مانويل) يعمد إلى غلق النوافذ. وتنشب ساعتها حرب طروادة! صراخ وصياح ورفس وركل تحمله على ترك ما بدأ وقد أخذ منه الغضب مأخذه. ألم يكن يعرف بالتجربة والخبرة أنّ ما حدث سيحدث؟ فلماذا لا يرتدع؟

وهكذا كان درس الفيزياء، في نظري على الأقل، حصّة لهو وتسلية. لم أتعلّم شيئاً تقريباً، لا عن القوّة ولا عن قوانينها ولا عن فعلها. ما أتذكره جيداً هو نزول البكرة من آلة (آتـوود)، وارتجاج الجهاز الكهربائي، الذي كان بالهزّة التي يحدثها فينا يرسم ابتسامة الرضا على وجه العالم ويطلق لسانه بصيحته: «حضراتكم تقتلونني!»، وكنّا في الواقع نمنحه الحياة!

كان مدخل القاعة التي ندرس فيها على دون (فرناندو) التاريخ الطبيعي والفسلجة محروساً بدبّ محنّط ما انفككنا نجرّحه بمطاوينا.

كانت مادة التاريخ الطبيعي بلا شك هي المادة التي أحببتها وأفدتُ منها أكثر من سواها خلال دراستي الثانوية، ويعود الفضل في جزء لا بأس به من ذلك إلى طريقة دون (فرناندو) في التدريس، طريقة رشقه للأسئلة علينا ما يبقي علينا منتبهين متيقظين، وعلى أذهاننا مشدودة صاحية، وبحثه عن الروح على حساب اللغة والأدب. مع ذلك لم

٤٣ – Mister Thiers أدولف تيير سياسي ومؤرّخ فرنسي (١٧٩٧–١٨٧٧).

أواصل دراستي في العلوم الطبيعيّة، فمن المعلوم أنّ الأولاد يظنون أنّهم أكثر أهليّة لدراسة ما دُرّس لهم أفضل. إنّها قصّة الأهواء والميول.

كم هو غريب أن تلاحظ أن الأولاد يرتعبون من سماع أسهل سؤال! يفترضون معنى عميقاً لما هو جليّ واضح ويحاولون جواباً معقداً لسؤال سهل بسيط. أذكر أنّ أستاذنا سألنا ذات يوم حول أثر الكحول على الإنسان؛ كان يبحث في كلّ واحد منّا عن أغرب إجابة؛ جال بيننا واحداً واحداً، وسألنا فرداً فرداً، ولمّا لم يتلقّ الردّ الذي كان ينتظره، هتف: «السُّكر!». بقينا جميعاً مبهورين فاغري الفم. كان الجواب الذي في مقدور أيّ طفل من الأطفال أن يعطيه. المشكلة أنّ روح (بيرو غرويّو) تسكن عقول الأطفال[٤٤]، ووراء عيون أبي الهول، هناك عيون عمي، فربّما لا يوجد شيء غير الذي نبصره ونراه.

لن أنسى أيضاً التمارين التي كنّا نمارسها لتصنيف النباتات في ثنائيّات، ولا تعريف النوع الذي طالما رددناه على مسمعه محاولاً أن يوفّر علينا مفاجآت مستقبلية مزعومة.

فما الذي أفدته من دراستي في تلك السنة، وما الذي عاد عليّ بنفع أكبر؟

على الشاب الناشئ، حين الانتهاء من دراسته، أن يحمل فكرة خصبة مثمرة عن الحياة ومظاهرها وأوجهها، مطبوعة في ذهنه، وأن يدرك مفهوم الطبيعة الحيّة الحي، مختوماً في روحه. لكنّ شيئاً من هذا لا يحدث. لأنّ تقاليدنا المدرسية البائسة، التي تحوّل كلّ تعليم وكلّ معرفة إلى نهج أدبي، كلّه أو في أغلبه، مشفوعة بإهمال الرأي

٤٤- Pero Grullo شخصيّة من الأدب الشعبي تنسب إليه أقوال وحكم مفهومة بالبديهة، من قبيل «إنّ الوقت نهار لأنّ الشمس قد أشرقت»، أو «حين لا يكون الطقس بارداً فهو حارّ أو معتدل».

العام وبالتنظيم المقيت لتعليمنا، تجعل المردود مجرّد مفهوم تبويبي آليّ بارد لا روح فيه.

لا شكّ أنّ الكثيرين يحسبون أنّ العلم هو ترتيب بقايا وفضلات ونفايات، وأنّ الروح تغتني بمفهوم حيّ حين نتعلّم أن «الميلولونثياي المألوفة» هي ما نسميها بالخنافس أو الجعران، أو أنّ «القطيات المنزلية» هو الصنف الذي يندرج تحته القط الذي نعرفه. فالهدف الأخير للعلم هو تصنيف الكون وتعلّم مصطلحات جديدة ولغة ثانية. خرجنا من تلك المنظومة التعليمية ونحن عاجزون عن تمييز كعب الحصان وركبته، ناهيك عن معرفة أصابع الثور. أمّا ما يسمّى بالمجموعات الحيوانيّة فما هي إلّا جلود محشوّة بالقش أو بالقماش بقصد إثارة إعجاب القرويين. ثمّ ما هذا الإصرار على تعريفنا بحشرات غريبة نادرة ومخلوقات بعيدة الموطن غريبة الأشكال وليس على ما يحيط بنا وعلى ما لا نعرفه إلّا قليلاً؟

إذا كان الهدف هو تنمية روح الملاحظة فينا، فيا لغرابة ذلك الهدف! أذكر أنّ صبيّاً سمع أستاذ التاريخ الطبيعي يكرر على مسامعهم مرّة ومئة أنّ من الضروري أن تكون الملاحظة مباشرة، وحين سئل في الامتحان عن الأسد، قال إنّ في نهاية ذيله خصلة من شعر خشن فيها إبرة. ولم يكن الصبي يكذب، فقد رأى في نموذج أسد محنّط طرف سلك حشر في خصلة شعر الذيل الخشن بقصد رفع الذيل والإبقاء عليه منتصباً.

وبدلاً من التعليم الذكيّ الحيّ عمد البعض إلى إعطاء تعريف للنوع، تعريف مجرّد، مدرسي ولفظي خالص، وعمد البعض الآخر إلى قصائد كونيّة واندفاع علمي مزيّف. ننظر إلى رداء الطبيعة، نحفظ الأسماء التي أطلقها العلماء على الكائنات الحيّة تسهيلاً لدراستها والبحث فيها وعنها، ولكن تفوتنا روحها، ويغرب عن بالنا حضورها المتموّج.

فماذا جنيتُ من سنوات دراستي الثانويّة؟

لقد تعلّمتُ، مع بعض من خيبات الأمل، أنّ ثمّة عالماً جديداً لم أستكشفه إلّا قليلاً، وأنّ وراء ذلك التعليم الجاف المجدب، وراء بقايا العلم تلك، علماً حيّاً ينتجها؛ وأنّ روعة الانعكاس الذي يصبّ على ذهني تلك النظم والدروس، كما يصبّ القمرُ ضياءه، وإن كان ضياءً خافتاً وبارداً، هو انعكاس شمس ساطعة، شمس تبعث الحياة، شمس العلم. خرجتُ عاشقاً للمعرفة.

رأيت عالماً جديداً يكمن وراء مصطلحات القواعد والبلاغة، ووراء السرد التوثيقي للتاريخ، ووراء خلاف التسميات في علم النفس، ووراء جمباز الرياضيات الإيقاعي، ووراء الألعاب اليدويّة في الفيزياء، ووراء التعريفات والتسميات والخانات المبوّبة والجلود المحشوّة بالقش في التاريخ الطبيعي.

ذهبتُ إلى مدريد لأدرس الفلسفة والآداب تحدوني الآمال، لكنّ تلك الآمال ذوت في قسم منها، فولدت أخرى غيرها، ثمّ ذوت هذه أيضاً ليظهر سواها. هكذا جرت حياتي كلّها، دفقُ آمال مستمر، في تجدد دائم، وحياة جديدة كلّ يوم. فمتى تحين ساعة الراحة، يا إلهي؟ وإلامَ سأتطلّع في النهاية؟ هل سأتطلّع إلى هذا، إلى ما أنا فيه؟ يا ليت!

المغزى والعبرة:

آي، آي، العالم المعروف لا يكبر بل يتقلّص.

لكنّ البحر والأرض الطيبة والسماء المدوية

تبدو أكبر وأوسع

ليس في عين الخبير العارف بل في عين الطفل الصغير.

بعد انتهائي من الدراسة الثانوية تركتُ ضفاف (النيربيون) وسافرتُ إلى مدريد للدخول إلى الجامعة متسلّحاً باستعداد مختلف في ظاهره،

لكنّه كان، في الواقع، هو ذاته الذي دخلتُ به إلى الثانوية. صحيح أنني تعلّمتُ من بين ما تعلّمتُ أن أسمي الجعران بالخنفساء الميلولونثيناية العادية، كما يفعل العلماء، وتعلمتُ أنّه من رتبة غمديات الأجنحة خماسيّة الأقسام صفائحية المجسّات. ولكن هل تغلغلت روحي بسبب هذا العلم أكثر في روحه؟ حين كنتُ طفلاً كان يقلقني ألّا أعثر على صغار الخنافس، ثمّ علمتُ لاحقاً مسألة البيض والدودة والشرنقة، لكنّي استمررتُ في البحث عن الصغار المثاليين للخنفساء المثالية.

فهل من الممكن أن وسّعت نفحة العلم المندفعة صدر روحي؟

ظننتُ كثيراً، وأنا أتأمّل مسقط رأسي بلباو من على جبال (آرجاندا)، أنّ مدينتي، على الرغم من سعتها، تصغر مع نموّي أنا. في وقت من الأوقات كانت جولة إلى (آسوّا) في الطرف الآخر من السلسلة الجبليّة، تبدو لي رواية من روايات (جول فيرن). وكنّا نتودد لمن يذهب لإمضاء أيام في (آباديانو)، فإن أراد أحدنا أن يباهي زملاءه بأنّه رأى قرى كثيرة، يذكر (ديوستو) أو (برتغاليته) أو (ألونسوتيغي) أو (غالداكانو) أو (دريو) أو (آريغورياغا)[٤٥].

العالم يصغر، كمسقط الرأس، مع نموّ الإنسان؛ يرجع الإنسان بصرَه دائماً إلى السنوات الأولى التي يبدو لنا فيها كلّ شيء غموضاً شفافاً. الغموض يجذب البالغين كما يجذب الأطفال. عبثاً يحاولون أن يمنعونا بخسّة من البحث عمّا يوصف بأنّه منيع صعب المنال، عن مطلق المجهول الذي يمتدّ كالبحر من دون شاطئ، بعيداً عن ميدان العلم التافه، ويتوسع مع تقدمه، لتظهر أسرار أخرى ومزيد من الغموض في كلّ اكتشاف جديد.

٤٥- جميع المناطق التي يذكرها كانت في وقت من الأوقات بعيدة عن المراكز السكانية ثمّ أصبحت تكوّن جزءاً من مراكز المحافظات الباسكيّة.

ينشد الشاعر (ليوباردي)[٤٦]:

انظروا. فكلّ شيء كما هو.

وما من شيء ينمو بالاكتشاف

غير العدم.

تصبغ سنواتنا الأولى حياتنا كلّها بنور ذكرياتها المنسيّة التي ما تنفكّ، مع ذلك، تبعث الحياة فينا من أعماق أنفسنا، كما الشمس تغوص في مياه المحيط لكنّها تضيئها من انعكاس السماء عليها.

يبكي الطفل ساعة يولد ويبتسم ساعة يفتح عينيه على الضوء؛ نفحة الأرض القاسية تؤلمه والنور الذي ينير له العالم يسلّيه. ذلك البكاء الأول للهواء وتلك الابتسامة الأولى للنور عند الولادة يبعثان فيه الحياة طوال حياته. سيمكنه من أن يملأ عقله بالصور والمفاهيم، وسيكون ذاك البكاء الأول وتلك الابتسامة الأولى وتلك اللمحة بمثابة جذع شجرة روحه.

الأفكار التي نأتي بها افتراضيّاً، بطريقة من الطرق، ساعة ولادتنا، الأفكار التي تجسّدت في نظرتنا الأولى سديماً مشوّشاً، التي راحت تعيش مع حياتنا ومن حياتنا إلى أن تصلّبت عظامها وقوي وعيها مع عظامنا ووعينا، هي أمّهات الأفكار، هي الأفكار الأم، الأفكار الوحيدة الحيّة، هي النغمة الرئيسة في اللحن المتواصل في سمفونيّة وعينا. أمّا الأفكار الأخرى فهي إمّا ترهات مخزونة في رؤوسنا أو وقود للأفكار الجينية.

وأضيف أنّ صاحبة القداسة فكرة طفولتنا المدفونة في وعينا هي أكثر قوة وأشدّ فاعلية من هذه التي تتحرك الآن مضطربة فيه وتبدو متحكمة به مسيطرة عليه.

٤٦- Giocomo Leopardi (١٧٩٨-١٨٣٧). شاعر وكاتب وفيلسوف إيطالي.

وكم من مرّة أرجعنا أبصارنا إلى حدس سنواتنا الأولى وبداهتها الغريزيّة، التي تسبر أعمق الأغوار ببساطتها! التي تسبر عين الشعر المبدعة، التي تجد في الطفولة سنّ خصوبتها الولود. وكما يحدث حين نعيد خلق العمل الفنّي في خيالنا بأن ننظر إليه بعين غريبة ونشعر بأننا مؤلفون مع مؤلفه الذي ضاع فيه فنستمتع به بلا حسد ولا ارتياب، هكذا هو الطفل حين يبتعد عن العالم وينظر إليه بعين غريبة، فإنّه يعيد خلقه بينما يتكفّل دعم الخالق بإلهام روحه. يضيع في العالم، وهو حين يضيع فيه يستحوذ عليه؛ وتتعانق في روحه البكر حياة العالم مع حياة روحه؛ يشبك أخيلته مع أخيلة ما هو مخلوق، وحين يسلّم قياده إلى تيّار الزمن، الذي يجري هادراً في روحه، يظفر بأكبر حرية في أحضان الحاجة الأشد ضرورة وإلحاحاً.

يا لصاحبة القداسة سنّ الوالدة الشعر وسنّ الوالد اللعب! نعم، إنّها سن الوالد اللعب، الذي منه ولد الفن، كما قال شيلر. الحدس الطفولي للعالم والنفحة القديسة الوالدة الشعر تنشط الروح. وعن طريق الشعر يستنشق الرجال، الذين أنهكتهم معارك الحياة، جرعة من الهواء، كما فعل عملاق (آنتايوس) من اتصاله بأمّه الأرض[٤٧]. وبالعمل الشاق الذي كتب علينا نتجدد في اللعب، وبالبحث الشاق عن العلم، وبالتأمّل الهادئ المنعش للشعر.

تكمن عظمة شعر هوميروس في أنّ نسمة منعشة من طفولة حضارتنا تنبعث من بين صفحاتها الخالدة. تحت سماء أيونية الصقيلة يردد المغنّي العجوز حقد (آخيل)، صاحب القدمين السريعتين،

---

٤٧ – بحسب الأساطير اليونانية فإنّ العملاق (عنتي) أو أنثايوس Anteo كان كلّما سقط أرضاً في القتال أعادت له أمّه الأرض قوته ومنحته جرعة من نفسها ليواصل بها القتال حتّى اكتشف عدوّه هرقل ذلك فأبقاه مرفوعاً معلّقاً محروماً من نفس أمّه ليموت اختناقاً.

ويتغنّى بالإغريق المشعرين وهم يقاتلون طروادة المقدسة من أجل (هيلين) الفاتنة، وجه الكلب، زوجة (منيلاوس) الأشقر. وحين يهرع شيوخ مدينة (بريام) الحذرون إلى البوابات ليشهدوا المعركة الحامية بين الرائع (باريس) والأشقر (منيلاوس)، يرون، وهم يثرثرون كالزيزان الواقفة على أشجار الغابة، (هيلين) وهي تقترب من البرج، فيقول بعضهم للبعض الآخر: ليس لأهل طروادة والإغريق المشعرين أن يستاؤوا من طول معاناتهم ما دامت بسبب امرأة كهذه؛ ألا ترون أنّ وجهها يشبه وجه الآلهة الخالدين.

هكذا فهم ذلك الأعمى، الذي كانت نظرته الساكنة كسماء أيونية تتغلغل بحدس عجيب في أرواح أبطاله الطفوليّة، أن يتعارك الرجال من أجل الجمال المتجسد في امرأة.

كم هو مختلف العالم الذي يتفتّح على عناية الحياة! في تلك القصيدة المقدسة، التي تضافرت على نظمها السماء والأرض والتي أصاب مخاضها الشاعر بالهزال لسنوات طويلة:

التي تعاونت الأرض في إتمامها والسماء

والتي أنحلتِ الجسمَ منّي سنين عديدة

(نشيد الفردوس. الأنشودة الخامسة والعشرون. ٢-٣)[٤٨]

يرى دانتي، منشد القرون الوسطى، العالم، الذي اهتزّت أقوامه بعد الألفيّة مضطربة، رؤية عاصفة، تمتلئ بالأسرار وتغصّ بالومضات، رؤية مشبعة بعناية السياسة وهوس الإمبراطوريّة والبابويّة، رؤية تضجّ بالمعارك الشرسة بين المدن وبين العصابات والأجنحة.

كان الثوريّ المجدد، ذو الوجه العبوس المتجهم، يطوف وادي جهنّم المؤلم وجبل المطهر ليتأمّل تاريخ أخطاء الأرض وخطاياها

٤٨- الكوميديا الإلهية والترجمة مأخوذة من ترجمة كاظم جهاد.

ورزاياها، يذهب لاستجواب حقيقة الحكمة الخالدة في السماء، بغية تقديس العادات والقوانين والفلسفة وحمل الشعب المسيحي إلى التوادّ والوفاق بعد أن كان ضحية حروب أهلية أشعلت خدمة لطموح الحبر الأعظم الذي لا يعرف نهاية (الجحيم. الأنشودة الرابعة: البيت٨؛ المطهر. الأنشودة الثانية والثلاثون، الأبيات ٩٩-١٠٣؛ الفردوس، الأنشودة السابعة والعشرون، الأبيات ٤-٦ وما يليها). الهدف العملي يرتبط بالشعر الخالص، الذي هو منظر كوني في رأي هوميروس.

في قرننا التاسع عشر هذا يلتفت الدكتور النابه الذكر (فاوستو) إلى (هيلين) الباقية، (هيلين) طفولة حضارتنا، بعد أن تعب من مطاردة الحقيقة وأصابه الجنون من دراسة الفلسفة واللاهوت والقانون والطب وانكبّ على النظر في العلوم الخفيّة، وهي لعبة العدمي (مفستوفيليس)، «أنا الروح التي يجحدها فاوست»، بعد أن استنشق الهواء من نفس (مارغاريتا)[٤٩].

فليس من إدراك للحياة أعمق من حدس الطفل، الذي حسبه أن يثبّت نظره في ملابس الأشياء من دون أن يحاول تعريتها لكي يرى كلّ شيء في داخلها، لأنّ الأشياء لا تخفي شيئاً، يحسّ بالغموض التام الأبدي، الذي هو النور الأوضح، يحمل الحياة على محمل اللعب والإبداع وعلى أنّها منظر للكون. ربّما تنطوي كلمات هوميروس في الأوديسة (النشيد الثامن، الأبيات ٥٧٩-٥٨٠) على أعمق إحساس: «تدبّر الآلهة فناء الرجال وتمضي فيه قدماً ليجد القادمون شيئاً يتغنّون به».

---

٤٩ - لدينا هنا إشارة إلى الدكتور يوهان جورج فاوست الذي يظهر في حكاية شعبية ألمانية في دور العالم النابه الذي يطمح إلى اكتشاف الجوهر الحقيقي للحياة فيعقد صفقة مع مفستوفيليس، الذي يجسّد دور الشيطان، يرهن فيها روحه ثمناً مقابل ما يبتغيه من سعادة مطلقة.

ولكن لا، لا، لا؛ هناك سرّ، هناك ما هو أبعد، هناك داخل.

لكنّنا لو حافظنا على طفولة أبدية وأبقيناها في سرير الروح، ليسقط عليه سيل الانطباعات الهاربة جارفة هادرة، لاستطعنا بلوغ الحرية الحقيقية وتمكنّا من النظر إلى سرّ الحياة وجهاً لوجه.

نغمة القرار

ليست الصفحات السابقة إلّا إعادة نشر لمقالات كتبتها ونشرتها قبل خمسة عشر عاماً في الصفحة الأدبية من جريدة (النيربيون)، وهي جريدة مدينة بلباو. لقد خطرت على بالي بعد النشر أمور جديدة عن شبابي وطفولتي، فرحتُ أهمّش بهذه الذكريات الجديدة تلك القديمة المنشورة، التي أحتفظ بها بكلّ حنين ومحبّة. بل لقد تنبّهت، والكتاب على وشك أن يطبع، إلى أنّني لم ألتفت إلى واحد من أهمّ جوانب مذكراتي، وهو المتصل بفن التخطيط والرسم الذي تعلّمته على يد رسّام محافظتي دون (أنطونيو دي ليكونا).

إنّما أصفُ هذا الجانب بالمهمّ لا لشيء يتصل بي، بل لأنّي تعرّفتُ في ذلك المرسم على من كان في وقت من الأوقات واسع الشهرة ذائع الصيت، وبات اليوم نسياً منسيّاً، وأريد به دون (أنطونيو دي ترويبا)، صديق (ليكونا). هناك، في ذلك المرسم، تعرّفتُ بالفعل على أنطون ذي القصائد المغنّاة[٥٠].

٥٠ – المقصود به أنطونيو دي ترويبا ذاته وكان يسمّى أيضاً أنطون ذا القصائد المغناة Antón de los Cantares

-١-

كان مرسم (ليكونا) يقع في ما يشبّه العلّيّة، في الطابق الأعلى من البيت ذاته الذي سكنتُه في بلباو منذ أن كان عمري سنة واحدة حتى سن السابعة والعشرين. هناك تعلّم أغلب لداتي من أبناء بلباو مبادئ التخطيط والرسم بقدر قليل أو كثير، على سبيل الهواية أو الاحتراف.

بدأتُ أتعلم الرسم بالقلم منذ سنوات شبابي الأولى، وعليّ أن أعترف، مع تقديري ومودتي لذكرى (ليكونا)، أنّني ألزمتُ نفسي بالعثور على الطريق الحقيقي بنفسي. مع ذلك فقد كان (ليكونا) هو من تولّى مراني وتدريبي.

ذاع صيتي في الثانوية من رسوم الكاريكاتير التي كنتُ أعملها للمدرسين، كانت كلها رسوم جانبية، بالطبع، وفيها يظهرون جميعاً وهم ينظرون إلى جهة اليسار.

ما زالت تعلقُ بذاكرتي رسومُ العديد من الرؤوس التي استنسختها في تلك العلّيّة، وقد رأيتُ بعضاً منها في لوحات شهيرة شاهدتها أثناء زياراتي للمتاحف.

إحدى الأشياء التي تعلّمتها جيداً كانت رسم سلسلتين من الخطوط القصيرة المتوازية التي تشكّل معيناً فوق خيال نشر بطريقة التظليل، وهي تقنيّة برع فيها (ليكونا) وأتقنها.

في درس التخطيط، كما في دروس الثانويّة، كان كل اهتمامي

الدراماتيكي والحياتي ينصبّ على العبور من مرتبة إلى أخرى. «متى ينقلونني إلى الرسم بالجبصين؟». وحين أصلُ إلى الجبصين كنتُ أقول: «متى ينقلونني إلى الألوان المائية؟». وحين وصلتُ إلى الألوان المائية صرتُ أقول: «متى أصل إلى الرسم بالألوان الزيتيّة؟». وهكذا كانت تمضي العملية برمّتها.

أحتفظ بذكرى مشوشة عن الوقت الذي نقلني فيه دون (أنطونيو) من استنساخ النماذج إلى العمل بالجبصين، وبدّل لي الغرفة.

كان عليّ أن أتعلّم رؤية الظلال مستعيناً بين الحين والحين باللمس والتفكير. لأنّ الجبصين، بحسب المعلّم، حيثما غار أو نتأ أنتج ظلالاً، مهما صغر غورها أو نتوؤها، ومهما افترضنا من رقتها ودقتها. وهذا هو التظليل بالتقدير.

وانتقلتُ من مرحلة الجبصين إلى الزيت – لا أتذكر شيئاً عن مرحلة الألوان المائية – لكنّي وجدتُ اللون عصيّاً. كنتُ وسخاً دائماً في نظره، ربّما لأنّهم لم يعوّدوني على رؤيته. كنتُ وسخاً في نقله إلى القماش ووسخاً في نقله إلى بذلتي. كنتُ أغرق فيه على الرغم من الملابس الواقية الفضفاضة.

كان (ليكونا) يبالغ في استعمال اللون الأحمر ويجبرنا على الإكثار من استعماله ويكرر علينا عبارته المعروفة: هذا أكثر سخونة، أكثر حرارة!

في مرسمه أنجزتُ العديد من النسخ التي كان قد أخرجها، في سنوات تعلّمه، من لوحات شهيرة – للرسامين (روبنس) و(بيلاثكيث)، إلخ –، لكنّي نسخت لوحات من عمله هو على وجه الخصوص، وما زلتُ أحتفظ ببعض من تلك النسخ.

مع ذلك، نحن الذين نحتفظ لـ (ليكونا) بأكثر المشاعر مودة

واحتراماً، لا نستطيع أن نؤكد أنّه كان رساماً كبيراً، فهو لم يتعدّ الدرجة المتوسطة الخجولة الخالصة النيّة، وإن كان بلا شك رائداً سبّاقاً في الكثير من الأشياء.

بالفعل هو لم يتميّز بخطوط ولا بألوان. فألوانه في لوحاته باردة، أكروماتية، عديمة اللون، بينما كانت خطوطه عاميّة، إن لم نقل غير دقيقة. مع ذلك لا يمكن إنكار أثره في رسّامي بلباو خاصة والرسامين الباسك عموماً ممّن جاؤوا بعده. تعرّفتُ في لوحة لقروي من عمل (باكيتو دورّيو)، على نماذج رسمناها أنا وهو غير مرّة في مرسم (ليكونا).

-٢-

كان فن (ليكونا) يتميّز بالنوعيّة التي ميّزت فن الباسك - إن كان ممكناً الكلام عن فن باسكي في وقت (ڤولواغا) و(لوسادا) و(غيارد) و(إيتورينو) و(ريغويوس) و(أورانغا) و(لوس آرويس)، أو عن نحت في وقت (موغر) و(بيخو) و(دوريو)...-، وأقصد بها نوعيّة الخجل.

إنّ أشدّ ما يميّز الفن الباسكي هو الخجل. ستجدون في موطني رجالاً شجعاناً وذوي عزيمة، قادرين على الإبحار في قشرة جوز في ريح عاصفة في بحر الشمال، أو المجازفة بحياتهم في أيّ خطر، لكنّك إن أجبرتَ أولئك الرجال أنفسهم على أن يتكلّموا أمام الجمهور أو حتى أمام امرأة لا يعرفونها، فستراهم مرتبكين مضطربين.

وتعزى هذه الصفة وهذا الصمت الذي ميّز قومي إلى أنّهم استعملوا، ولقرون طويلة، لغة خاصة مميّزة تفصلهم عن الآخرين، وما زال جزء كبير منهم يسير على ذلك النهج.

فالقروي الباسكي، الذي لا يتقن القشتالية، يخشى أن يتندّر عليه السامعون، ومن هنا انكماشه وخجله، كما يزعمون. ولكن، ما بال الباسكي ينكمش أيضاً ويخجل حين يتكلّم بلغته؟ لا بدّ أنّ العلّة تكمن في أسباب أكثر خصوصية.

إنّ الخوف من النشوز وتجاوز خط الوسط والخروج على

المألوف له حضور قويّ بين قومي. وهو ما يؤدي إلى أننا حين نمزّق هذا الحاجز، حين ننفض عن نفسنا ذلك الخجل، يصعب إيقافنا ونتحوّل في العادة إلى أفراد على قدر واضح من الوقاحة وقلّة الحياء.

وقد ظهرت هذه الصفة في ما أتردد في تسميته بالفنّ الباسكيّ. فكلّ شيء فيه متحفظ مكبوح خجول وفقير أيضاً. وهذا هو ما سمّي بروحنا الأبويّة، القائمة على نظام الأسرة والأب.

يكفي أن نتذكّر أهمّ لوحات (ليكونا): «مباركة المائدة»، وفيها تظهر العائلة القروية في حجرة الطعام، لا يفصلهم عن حجرة الثيران غير عدد من الطاولات؛ «الصدقة»، حيث يظهر طفل قروي تمسك أمّه بيده بينما تمدّ باليد الأخرى كوزاً من الذرة لرجل متسوّل؛ «مشهد حانة»، «رقصة في مهرجان»؛ وغيرها.

في كلّ ذلك تلاحظ بصمة تنيير[٥١]، الذي أثّر أكثر من سواه في (ليكونا) حين درس هذا في مدريد.

إنّ انحياز (ليكونا) إلى (تنيير) وتأثره به دون سواه لهو دليل على عمق المشاعر التي كان معلّمي، رسام (غيبوثكوا)، يحملها تجاه قومه. وقد كتبتُ حول ذلك في كتاب آخر من كتبي، حين زرتُ مدينة (الكالا دي إينارس)، في معرض المقارنة بين (قشتالة) و(بشكايا). وإليه أحيل القارئ الراغب في معرفة أوسع عن الموضوع.

لطالما رأيتُ نسخاً من لوحات (تنيير) في مرسم (ليكونا). وطالما وجدتُ بصمات الرسام الفلامنكي في لوحات (ليكونا)، مترجمة إلى الباسكية، دون أن يغيب فيها الشخص الذي يدير ظهره للمشاهد

---

٥١ – Teniers لقب عائلة من رسامي عصر النهضة (القرن السابع عشر) اشتهر منهم تنيير الكبير وتنيير الشاب وتنيير الثالث. المراد هنا هو الشاب (١٦١٠–١٦٩٠) لأنّه اشتهر باتجاهه في تصوير العادات البلدية والتقاليد الشعبية.

وهو يتبوّل على حائط. وفي ذلك كلّه ما يعكس مزاج (ليكونا) الطيب المتحفظ الكتوم المتعقّل.

أذكر أيضاً أني سمعته يتحدث عن (الغريكو) ويصفه بأنّه مجنون غريب الأطـوار[٥٢]. من أدلته على جنونه التاجُ المثلّث المقلوب – هكذا كان يرى تاج الأساقفة الفريد– الذي يعلو رأس الأب (إرنستو) في لوحة «الثالوث» المحفوظة في متحف (البرادو). لا شكّ أنّ (ليكونا) كان يردد ما يشيع بين العامة حول جنون (الغريكو). وكان ذلك طبيعيّاً، لأن رساماً من وزن (الغريكو)، قادر على أن يكشف أدق مكنونات الروح القشتالية وأشد نقاطها وحشية وفظاظة، لا بدّ وأن يثير الخوف في رجل من شاكلة (ليكونا). مع ذلك، فقد كان (الغريكو) هو من قاد رسّامنا (ثولواغا) إلى إظهار ما تستطيعه العبقرية الباسكية حين تحطّم أغلالها التي تقيدها.

كان (ليكونا) يرسم لوحات شخصيّة أيضاً، حاله حال (بارويتا) وسواه. وكانت أيضاً لوحات خجولة ومنطوية.

من بين تلك اللوحات لوحة «آرلوتي العظيم»، ولوحة «الشاعر الضال» ولوحة «إباراغيري» ولوحة «مغنّي سنديانة غيرنيكا»، وقد استنسختُ هذه اللوحة الأخيرة. في ذلك الوقت تعرّفتُ إلى (إباراغيري)[٥٣]، بعد عودته من أمريكا. كان يتردد على (ليكونا) لكي يرسمه. وكم كان تأثرنا كبيراً ونحن نرى ذلك الرجل العظيم الأسطوري يمرّ من أمامنا بلحيته الكثّة وخصلات شعره الأبيض الطويلة! يظهر في الصورة وهو يعزف على القيثارة ويضع البرنيطة

٥٢- El Greco (١٥٤١-١٦١٤) رسّام إسباني شهير من رسامي نهاية عصر النهضة.

٥٣- José María Iparraguirre (١٨٢٠-١٨٨١). شاعر وموسيقي إسباني باسكي.

على رأسه وأذكر أنني سمعته يقول إنّه في شبابه لم يلبس البرنيطة، بل كان يلبس قبعة عريضة كتلك التي تظهر في لوحة «برينغاس».

لكنّ ما تعلمتُه في مرسم (ليكونا) كان الرسم الجانبي للفلاح الأراتياني[٥٤] بقبعته الكبيرة المطوية الجناح من الخلف وخصل شعره وغليونه المعمول من الطين وقبّة قميصه العريضة.

الأراتياني! لقد بلغ الأراتياني بالنسبة إلينا حدودَ ما هو أسطوري! ومن هنا التأثر العميق الذي شعرت به حين ذهبت للمرة الأولى إلى قرية (ثيبريو)، مسقط رأس جدي لأمّي، في وادي (أرّاتيا) لحضور حفلة عرس.

٥٤- نسبة إلى ناحية Arratia الواقعة في محافظة (بشكايا) الباسكية.

-٣-

لم يعلق بذاكرتي من تلك الرحلة ومن ذلك العرس إلّا القليل، وقد سطرت على صفحات روايتي «السلام في الحرب» صفوة ما بقي من انطباعاتي هناك. أمّا هنا فسألتفتُ إلى أمور أخرى.

الرجل القروي - (خيبو) أو (باتو) كما كان يسمونه في بلباو، وكنّا نحن نسميه «بايكو» في ما بيننا أو في أيام الكرنفال- هو كائن تراه عيوننا الطفوليّة محاطاً بقدر من الهالة والهيبة، كما هو حالها مع جميع الكائنات تقريباً.

هو، من ناحية، شخصيّة هزليّة، بل غريبة؛ يمكن التندر عليها بسهولة. في الكرنفال يبدو التنكّر بملابس القروي الأكثر شيوعاً. يتنكّرون غالباً بملابس قروي (جوريريكو) أو «أرض العصافير»، في إشارة إلى وادي (آسوا)، المجاور لوادي نهر (النيربيون)، بسرواله المعمول من فضلات القماش، ويتنكرون بزي الأراتياني، بقبعته الكبيرة ذات الجناح المطوي من الخلف. كانت سذاجة القروي وتبلّده مضرب الأمثال؛ وكان تقليده وهو يرطن بالقشتالية واحداً من مصادر ضحكنا وهزلنا.

لكنّ القروي، من ناحية أخرى، كائن يحيا حياة أخرى، في وسط الحقل، في بيت ريفي شاعري، ويتكلم لغة أخرى، لغة ألفيّة عريقة، هي لغة أجدادنا.

إذا كان لك معارفُ أو أصدقاءٌ قرويون، ففي ذلك ما يميّزك؛ أمّا إذا كان لك بينهم أقارب فتلك مسألة تستحقّ أن يدور حولها الحديث.

في عيد القديس توماس كان القرويون يغزون شوارع المدينة، ليحملوا الإيجارات إلى مخدوميهم وليعودوا في المقابل بسمك القد المعهود وبسواه. وقد ذكرتُ أنّ بعض أقاربنا من القرويين كانوا يزورونا لتناول الطعام معنا.

كان وجود أقارب قرويين مدعوين لتناول الغداء يعني بالنسبة إلى الطفل الكثير. يأتون بطريقة مميّزة، ويدخلون بخطوة تختلف عما يفعله الآخرون – معروف أنّ هؤلاء يفسحون طريقهم بأيديهم بينما يفسحه القرويون بأقدامهم–، يحملون رائحة أخرى، رائحة السرخس والأبقار وحاجات الريف، يسلّمون من دون أن يخلعوا البرنيطة، يأكلون وفق طقوس تختلف عن طقوس التحضّر، أو بالأحرى التوحّش. يجلسون بعيدين عن المائدة لفسح مجال أكبر للملعقة في رحلتها بين الصحن والفم، ويتركون دائماً شيئاً في الصحن فكأنّهم يريدون أن يقولوا إنّهم ليسوا جائعين. كانت لديهم، على وجه الخصوص، طريقة متفردة في التبسّم، فهم يبتسمون ابتسامة هرقل الطيب، كما قال آرثادون وأجاد[٥٥]. ابتسامة القروي، بين خجلة ومرتابة، هي قصيدة وجهه.

ومن بين قرويي أطراف بلباو، من بين أولئك الذين دخل أجدادهم غير مرّة المدينة ثوّاراً ومتمردين، كان قرويو (أرّاتيا) الأكثر حضوراً وغرابة.

كانت (أرّاتيا) عند أهل بلباو، وما زالت كما أحسب، أنقى وأخلص ما في (بشكايا)، فقد كانت الأكثر منعة والأقدر على رفض كلّ ما يرد من الخارج. إنّها قلب (بشكايا). إنّها الأسطورة. في بلداتها، (يورّي)

٥٥– Martín de Arzadun (١٦٧٥–١٧٤١). أديب وكاتب إسباني باسكي.

و(ديما) و(أرتياغا) و(ثيانوري) و(ثيبريو)، لا في بلدات سواها، ما زالت محفوظة على خير ما يكون الحفظ والنقاء سلالة من صدّوا الأغراب وردّوهم، روماناً كانوا أم قوطاً أم وندالاً أم مسلمين (تلك كانت عبارة ثابتة).

كنتُ عازماً على زيارة (أرّاتيا) و(ثيبريو) لحضور العرس القروي! كنتُ في طريقي لمشاهدة شيء مما كان (ترويبا) يقصّه علينا!

وذهبتُ إلى (ثيبريو)!

ولأنّني عدتُ إليها بعد ذلك مرات ومرّات فليس في مقدوري أن أميّز، ضمن انطباعي العام عن ذلك الوادي الرائع، ما يعود منه إلى جولتي الأولى تلك. مع ذلك أعرف أنّ رواسب الطفولة تتحرّك في قلبي حين أسير في أنحاء ذلك الطريق الممتد بين سلسلتي الجبال المكسوّة بأشجار الكستناء، بالقرب من البيوت الريفية القديمة التي يروي خشبها أحداث قرون من السكينة والعيش الرغيد بينما يهبط من السماء الملبّدة دائماً تقريباً حزن لذيذ.

أثناء تلك الزيارة، قطعتُ ذلك الطريق غير مرّة وأنا في سبيلي إلى كنيستها الرائعة، التي ينبعث من رواقها صدى أشعار وطني النبيلة الكريمة. هناك تلتقي القرويات، بشالات القماش الأسود والمناديل المتدلية على جباههنّ، يبتسمنَ ابتسامة الحقل لفتى بلباو، الذي يرمقهنّ بنظرة المدينة الجادة. إلى هناك يذهب، ببطء وكالمتعبين، القرويون الذين تبيّن لي من بعدُ أنّهم أقارب جدي.

وماذا يجري في ذلك البيت الريفي؟ في ذلك البيت الحزين، بيت (أوغارته)، المدفون في الوهدة؟

بالقرب من الموقد، أغمض عينيّ، بينما يبحث الدخان عن مخرج له من بين الفتحات، فليس للبيت مدخنة. توضع حبّات الكستناء

على النار ونستمع إلى العجوز، وهو يقصّ بلغته القشتالية الضعيفة، حكايات طفولة أبدية. ثمّ أنام في السرير الواسع العميق، مدفوناً في مرتبة من قشّ الذرة، بين عبق الحقول. وعند الصباح، حين تبسط الشمس خيوط ضيائها الرفيعة من بين فتحات الشبّاك، أشعر بالعجوز وهي تدخل على رؤوس أصابعها، كي لا توقظ الفتى القادم من بلباو، فتأخذ زجاجة العرق وتتناول جرعة الفطور.

ثمّ يأتي النهار الطويل، بطوله وعرضه وعمقه، نهار الحقل، الممتد في الهواء الطلق، بين أشجار الكستناء. تجوال في الصباح وتجوال في العصر، وحليب موفور مبذول.

أسير إلى عين ماء كبريتية أقيم فيها منتجع معدني ثمّ هدم. أتجه إلى أعلى (ساراسولا)، ثمّ إلى الجبل، أسير كلّ صباح، فأين ستنتهي رحلتي؟

لن أتحدّث بشيء عن حفلة العرس، فقد تحدثتُ عنها في روايتي «السلام في الحرب». ولكن كيف جرت؟ وماذا حدث؟

جرى الأمر على هذا النحو: ليس في رحلة العرس بل بعد ذلك، حين صار للعريسين طفلة. أصيبت الزوجة المسكينة في عقلها، فكنتُ أراها كئيبة مستغرقة. كنتُ ذات مساء وقت الغروب وحدي في شرفة البيت الريفي، رأيتُ صاحب البيت المسكين هائماً على وجهه، حزيناً مطرقاً، فأبوه أصمّ، وامرأته شاردة، والحقل مكفهرٌّ متجهم. لازمتني غصّة لا أدري من أين جاءتني وأجهشتُ بالبكاء وأنا لا أعرف سبباً لذلك. كانت تلك المرة الأولى التي يقع لي شيء من هذا القبيل، فقد كشف الحقل لقلبي سرّ الحياة. وبدأت أسبح في الرومانسيّة التي سأتحدث عنها لاحقاً.

هناك، في (ثيبريو) رسمتُ قرويّاً من (أرّاتيا)، قرويّاً طبيعيّاً حقيقيّاً وفاعلاً، رسمته وهو في أرضه.

وببطء عدتُ إلى المدينة، في عربة نقلتني حتّى (ميرابايّس).

-٤-

وبالعودة من رحلة الضيعة إلى مرسم (ليكونا) أتذكر أيضاً مناسبة تعرّفي إلى (ترويبا)، صديق معلمي الحميم وشقيقه الروحي.

لقد اعتاد (ترويبا) زيارة (ليكونا) في مرسمه كلّ خميس، وفي هذا الإيقاع من الزيارات، في اليوم التقليدي من أيام منتصف الإجازة، ما يحدد شخصية الرجل.

ومن التفاصيل الأخرى التي تحدد شخصيّته أتذكر اثنتين.

في الدور الرابع من بيتي، تحت مرسم (ليكونا)، كان يسكن رجل اسمه (مانويل رويدا)، وكان اسمه هذا منقوشاً على لوحة معدنية وضعت فوق الباب. وذات يوم وبينما كان (ترويبا) صاعداً لزيارة صديقه، قرأ اللوحة وهتف بلغته المتلعثمة: «مانويل رويدا...فلـ... يلفّ ويستدر، يا رجل، فليلفّ ويستدر»[٥٦].

ووصل ذات مرّة إلى حيث يعمل صديقه، بينما كان هذا، كدأبه، يعدّل ويرتّش لوحة زيتيّة لجبل (كابراس) القريب من بلباو. سأله (ترويبا)، وهو يعرف بلباو وما حولها، عن المكان الذي يرسمه، فأجابه (ليكونا) بأنّه جبل (كابراس). فقال له ذاك: «فأين درب شجيرات العلّيق الذي يقطعه؟» فردّ عليه (ليكونا): «في الطرف

٥٦- يتندر القائل على اسم ذلك الشخص، الذي يعني حرفيّاً: «مانويل يلفّ ويستدير».

الآخر»، فما كان من (ترويبا) إلّا أن لفّ حول مسند الرسم لينظر إلى اللوحة من قفاها. وحين انتبه إلى سذاجته احمرّ وجهه، بينما لم يستطع (ليكونا) أن يكتم ضحكته من غفلة صديقه.

ما أبسط روحَي الرسّام والشاعر! روحان ولدتا لتتفاهما! الشعر والأدب عموماً عند (ترويبا) يتوافق مع الرسم عند (ليكونا)؛ فهذا كان كذلك، متحفظاً خجولاً وفقيراً. القرويون الذين يرسمهم هذا هم أنفسهم الذين يتحدث عنهم ذاك، قرويون من قرويي عيد الميلاد المعمولين من الكارتون، بسطاء كالحملان، وكالحملان بليدون.

هناك، في ذلك المرسم عرفت (ترويبا) عياناً، وجمعتني وإيّاه صداقة أحتفظ عنها بذكريات أخرى.

يذكّرني موقف (ليكونا) من (الغريكو) بما حدث لي مع (ترويبا) بعد سنوات. قال لي ذات يوم: «قل لي حضرتك، يا ميغيل – هكذا كان يخاطبني – أترى ما يراه مننديث بيلايو[٥٧] من أنّ هناك ما يستدعي الاهتمام بهذا الـ «غوته» أو لا أدري كيف يسمونه؟». فالمشكلة لديه تكمن في عدم قدرته على تفسير شهرة بعض الشعراء والكتّاب. شهرة (ثربانتس) كانت واحدة من تلك التي لا يفهمها. أمّا في المسرح فقد مات وهو يعتقد أنّ صديقه الحميم، الكاتب المسرحي (لويس دي إيغيلاث)، الذي لفظ أنفاسه وهو بين ذراعيه، خير من (كالديرون)، وأنّ مسرحيته «صليب الزواج» خير من مسرحية «الحياة حلم».

كان (ترويبا) يمثّل أرضاً، وكان أيضاً يمثّل حقبة من حقب الأدب الإسباني، حقبة من البراءة والنقاء المشوبين بسخرية غير جارحة ولا عدوانيّة، حقبة كان في مقدور كتّابها الدخول إلى كلّ بيت.

---

٥٧ – Menéndez Pelayo (١٨٥٦–١٩١٢) أديب ولغوي وكاتب ومفكر إسباني شهير كتب في تاريخ الأدب ونقده.

(ترويبا) الطيب هذا، ومعه (سامانييغو)[٥٨] وسواه، هو الذي ألهم (منندیث بيلايو)، الذي أشرنا إليه سابقاً، والذي لم يهضمه ابن بلدي قط، لأنّه، من بين أسباب أخرى، كان من محافظة (سانتاندير)، عبارة «الشعر الباسكي الأمين المستقيم»، وهي عبارة جعلتني أقول مقرّاً بصوابها وعدالتها إنّ من الواجب علينا أن نسفّه ذلك الشعر ولا نفخر به.

فعلاً. الأدب الباسكي، ولم يكن ممكناً حتّى سنوات قليلة الحديث عن «أدب باسكي»، تميّز دائماً بأمانته واستقامته، أي بمحدوديته وتحفظه وفقره، أي بصفات سلبية. يجب البحث عن ملاحظات أخرى في رسائل (إنيغو دي لويولا)[٥٩] وكتاباته، في وثائق ومذكرات منسيّة، في قصيدة (أروكانا) الملحميّة الوعرة في كلامها الوحشيّة في مفرداتها.

وهنا يجب أن نلقي بالذنب على اللغة.

لم تكن القشتالية لغة أصلية في موطني، حتى نحن الذين تكلمنا بها ونحن في المهد، تكلمنا بها دائماً على اعتبار أنّها لغة مستعارة، لصيقة. وكانت قشتالية فقيرة.

أمّا الكتّاب فقد جاهدوا دائماً واجتهدوا، بشيء من التبعيّة والعبوديّة، للكتابة بفصاحة ودقّة، وهاجسهم ألّا يلاموا على خطأ أو لحن، من تأنيث مذكر أو تذكير مؤنّث. كان (ترويبا) متميزاً في ذلك، وإن كان صحيحاً أنّ أهل (إنكارتاثيونيس دي بثكايا)، مسقط رأسه، تكلّموا القشتالية بطلاقة فريدة وعلى الطريقة الجبلية أو طريقة أهل (سانتاندير). ومن منّا لا يلاحظ، وهو يقرأ كتابات (سابينو آرانا)، المدافع عن سياسة العودة إلى استقلال بثكايا الباسكيّة، إصراره على

---

٥٨ – Félix María Samaniego (١٧٤٥–١٨٠١). شاعر إسباني اشتهر بأشعاره التعليميّة التي نظمها على لسان الحيوانات.

٥٩ – Íñego de Loyola (١٤٩١–١٥٥٦) رجل لاهوت وحرب وأدب.

الكتابة بالقشتالية التي تعلّمها في المهد، والتي استعملها دائماً للتعبير والتفكير بأدق ما يمكن وأفصح، لأنّها لغته الأم؟

هذا الإصرار وذلك الخجل الذي تكلّمتُ لكم عنهما طبعاً، حتى وقت ليس بالبعيد، أغلب ما كُتب وصدر في موطني الباسكي. وهو ما جعل التعرّف علينا صعباً، لأنّ (آخيل) الباسكي لم يتوفر على هوميروس من قياسه ومقامه.

الشعب الباسكي، وقد قلت ذلك غير مرّة مستعملاً عبارة (كارليل) عن الشعب الإنكليزي، كان على الدوام شعباً أخرس؛ تمكن من فعل أشياء كبيرة، لكنّه لم يتعلّم الحديث عنها، لذلك ضاع بين الشعوب الصاخبة التي تلهج بمآثرها.

لم يجد (إلكانو) ولا (ليغاثبي) ولا (أودانيتا) ولا (إيرالا) ولا (غاراي) ولا (ثاماكولا) ولا (ثومالاكاريغي) ولا حتى (أغناطيوس دي لويولا) و(فرانسيسكو خابيير)، وكلّهم باسكيون، من يحكي لنا عن روحهم كانوا جزءاً من روح بني قومهم. أمّا أروع ما قيل فينا فلم يقله باسكي، بل قاله قشتالي. أنقل هذين البيتين اللذين كتبهما (تيرسو دي مولينا) في مسرحيته «تعقّل امرأة»، وهما بيتان يرددهما دائما أبناء بلدي:

ابن بثكايا هو الحديد الذي أبحث عنه فيكم:

قليلُ الكلام طويلُ الفعل.

أَلا نستطيع أن نكون، وقد حطّمنا خجلنا وسفّهنا أشعارنا، كثيري الكلام أيضاً وعريضيه وعميقيه، فضلاً عن الفعل؟

حين ننطلق بالكلام سنجد من يسمعنا. قلتُ ذلك مراراً وأقوله كلّما قرأتُ (باروخا) و(مايثو) و(سالابيريا) و(إيتوريباريا) و(آرثادون) وسواهم الكثير[٦٠].

٦٠- مجموعة من الأدباء الباسكيين الإسبان.

أنا أثق بقومي لأني أثق بنفسي. وأذكر أنّني حين خرجتُ من مدينتي بلباو بعد حصولي على شهادة البكالوريا، لأدرس في الجامعة في مدريد، حملتُ في داخلي تلك الرومانسيّة الباسكيّة المشوّشة، وقاية لي وجُنّة.

-٥-

فعلاً. كانت عبقريات تلك الرومانسيّة هي ما ملأ روحي في سنوات الثانوية الأخيرة بالأسطورة. كان أبطالها (نافارّوا بيّوسالادا) و(غويزويتا) و(آراكيستاين) و(بيئنته آرانا) و(ترويبا).

قرأتُ كتبهم في مكتبة بيت الرحمة المقدس، الكائنة في ساحة المعهد، عند مدخل شارع (إيتورّيبيده). كنّا ندفع مبلغاً معيناً على سبيل الضمانة لنتمكّن من استعارة الكتب وحملها إلى البيت. وكانت الكتب تحمل في واجهتها بطاقة كتب عليها: «الكتاب الذي بين يديك هو من كتب الفقراء؛ فتعامل معه بما تستطيع من عناية وحبّ»، أو شيء من هذا القبيل. ليس ضرورياً أن أذكر أنّ الكتب كانت منتقاة، فما كان يدخل فيها كتاب مخلّ بالأخلاق أو مسفّه للتقاليد أو مخالف للعقيدة الكاثوليكيّة، فضلاً عن أنّ أمين المكتبة كان يمارس رقابة مسبقة فيمنع كتباً معينة عن قرّاء معينين.

من الكتب التي قرأتها في تلك الحقبة كتاب «آمايا» أو «الباسك في القرن الثامن» و«الأساطير الباسكية-الكنتبريّة» و«الأيبيريون المتأخرون»، وكلّ ما يتّصل عموماً بأساطير بلدي، بالإضافة إلى مواضيع أخرى. أذكر أنّ منها ما ترك فيّ أثراً كبيراً مثل قصيدة (تنيسون)[٦١]، «آنوج آردين»، التي قرأتها بترجمة (بيئنته آرانا)، ثمّ حين قرأتها بالإنكليزية، قبل

٦١- Alfred Tannyson (١٨٠٩-١٨٩٢). من أبرز الشعراء الإنكليز في القرن التاسع عشر.

ثلاث سنين أو أربع، استمتعتُ بتأثيرها الرائع المباشر، مشفوعاً بصدى موسيقي، هو ذكرى قراءتي الأولى لها إبّان مراهقتي.

وبينما كانت روحي تتغذّى من تلك الأساطير - الموضوعة في غالبيتها- وكلّ تلك الأوهام المنبعثة من ماضي قومي البعيد، كنتُ أدرس اللغة الباسكيّة بمثابرة واهتمام، في الكتب قبل كلّ شيء، ثمّ أتحيّن كلّ فرصة لأتكلّم بها أو لأستمع إلى الآخرين وهم يتكلمون بها. حينئذ بدأتُ بتأليف قاموس باسكي- قشتالي قصدتُ أن يكون شاملاً. ثمّ قررت أن يشمل أصول الكلمات. وما زلتُ أحتفظ بالكمية الهائلة من المادة التي جمعتها في سنوات عديدة، بدءاً من سنتي الأخيرة في الثانويّة.

حين وصلتُ إلى مدريد للشروع في دراستي الجامعيّة، كانت كتابة تأريخ الباسك في ستة عشر أو عشرين مجلداً واحداً من طموحاتي. وقد عرضتُ الفكرة على زميلي وصديقي العزيز (براكيديس دييغو آلتونا) وقررنا العمل معاً في ذلك المشروع.

عشرون مجلداً عن تاريخ شعبي والمجلد الواحد يكفي ويزيد!. كتب (كانوباس دل كاستيّو): «إذا كانت الشعوب التي لا تاريخ لها سعيدة، فما أسعدَ الباسكيين، الذين ظلوا من دون تاريخ لقرون». وإن كنتُ أرى أنّ تاريخ الباسك تاريخ صامت، تاريخ منكفئ إلى الداخل، تاريخ بعيد عن خشبة الأقوام المسرحيّة.

ومع غياب ذلك التاريخ، بنيت أسطورة رومانسيّة على أسس ضعيفة هزيلة، بل في الهواء. وكان (شاهو)، البايوني، هو المؤسس الأساس[٦٢].

٦٢- Joseph-Augustine Chaho (١٨١٨-١٨٥٨) كاتب ولغوي من مدينة (بايونا) في منطقة الباسك الفرنسي ومن روّاد النزعة الاستقلالية للباسك.

نعرف اليوم أنّ أنشودة (ألتابيسكار)[٦٣] الشهيرة في وقتها، والتي خدعت (هومبولت)، موضوعة مزيّفة، وموضوعة ومزيفة هي معظم أساطير موطني. أسطورتنا الحقيقية النقيّة الأصيلة هي في المستقبل.

ملأت رأسي أسماءُ (آيتور)، الأب العجوز الذي جاء من الأرض التي تولد فيها الشمس - بالربط بين Euscaldo الذي يعني «الباسكي» مع egusqui أو eusqui الذي يعني «الشمس» - و(ليكوبيدي)، الذي يعني «سيّد بثكايا»، الذي يقولون إنّه قاتل جيوش سيّد العالم (أوكتافيانو) و(ليلو) و(زارا) و(خوان ثوريّا) أو «السيّد الأبيض»، الذي وصل من إيرلندا إلى شواطئ موطني، وسواهم الكثير من شخوص الأسطورة.

حين سنحت لي الفرصة ذهبت إلى (آريغورياغا) وزرتُ كنيستها لأشاهد فيها ضريح الأمير الليوني (أوردونيو)، وهو أمير خرافي مئة بالمئة، الذي هزمه أهل (بثكايا) هناك. يقولون إنّ المكان كان يسمى (بادورا)، وإنّ الدماء التي سالت كانت من الكثرة أنّهم أطلقوا على المكان اسماً جديداً هو (آريغورياغا) أي «الأرض الصخريّة الحمراء»، لأنّ الدم حوّل الحجر إلى منجم من حديد، ومعروف أنّ تلك البقاع غنيّة بهذا المعدن.

بُعيد انتهاء السنة الأولى من دراستي الثانويّة، في الحادي والعشرين من عام ١٨٧٦، وكان (كانوفاس دل كاستيّو) حينها رئيساً للوزراء، صدر قانون إلغاء القوانين المحليّة، أقالوا مجالس

٦٣- قدّمت أنشودة Altabiscar على أنّها قصيدة ملحمية باسكية قديمة تعود إلى القرن الحادي العاشر الميلادي. وكان من بين الذين دعم هذه النظرية الفيلسوف واللغوي الألماني Wilhelm von Bumboldt (١٧٦٧-١٨٣٥).وقد تبيّن لاحقاً أنّ النص موضوع في القرن التاسع عشر.

الإقطاعة العامة في (غرنيكا)، وأطلقت الدعوة للتجنيد، وتوقف إنتاج التبغ. وفي خضمّ اضطراب النفوس الذي تبع ذلك الإجراء بدأت روحي تتشكّل.

ومن هنا حميّتي آنذاك لقومي وحماسي لبني وطني. ما زلتُ أحتفظُ بدفاتر من تلك المرحلة، أبكي فيها، على نحو ما يفعل (أوسيان)، وأرثي خنوع قومي وانحطاطهم، وأتضرّع إلى شجرة (الغرنيكا) المقدسة – إلى قداستها العامة تضاف عندي قداسة خاصة، فقريباً منها، في (غرنيكا)، كانت تسكن من أصبحت لاحقاً زوجتي – وأستحضرُ صور (آيتور) و(ليكوبيده) و(خوان ثوريّا) المهيبة وألعن الأفعى السوداء، التي تخترق جبالنا وتأتينا بالفساد من وراء نهر (الإبرو)، بينما تجرّ حلقاتها الحديدية وتنفث دخانها.

كنّا نذهب إلى الجبل كلّما عنّ لنا ذلك، وإن لم يكن سوى جبل (آرجاندا)، لنلعن ذلك الحاضر البائس ولنبحث عن قليل من حريّة أسلافنا الباسك، الذين كانوا يموتون على الصليب وهم يلعنون جلاديهم، ولنحمّل بلباو، بلباو المسكينة، جريرة الكثير ممّا حدث. نفحة من فكر (روسو) كانت تحملنا لنضيع في فجاج (إيتورّيغورّي) المشجرة الوارفة، التي أتلفتها في وقتنا المعادن المشؤومة.

أتذكّر عملاً صبيانيّاً خطر في بالنا، أنا وصديق لي، وأقدمنا على فعله تحمساً للقوانين المحليّة الملغيّة، وقد تكتمنا عليه لسنوات: كتبنا إلى الملك ألفونسو الثاني عشر رسالة من دون توقيع، ننتقده فيها ونهدده على توقيعه قانون الحادي والعشرين من حزيران. كتبنا على الظرف: «إلى صاحب الجلالة الملك دون ألفونسو الثاني عشر– مدريد»، ووضعنا الرسالة في صندوق البريد. وحين وصل إلى بلباو بعد وقت قصير خبر الاعتداء الذي تعرّض له الملك

على يد (أوتيرو) أو (أوليفيا) -لا أذكر أيّاً كان منهما، ولن أنشغل الآن بالتأكد من ذلك- نظر كلّ منّا مرعوباً إلى وجه صاحبه[٦٤].

ولطالما تمشينا في مرسى (الآرينال)، مقابل (ريبا)، ونحن نتناقش حول أمراض الحركة الباسكيّة ونتأسف للجبن الذي نشهده! ولطالما خططنا لزمن تكون (بشكايا) فيه مستقلة! في الوقت نفسه، وفي المحيط ذاته، كانت تتشكّل فينا روح (سابينو آرانا)[٦٥].

بدأت تشيع بيننا نزعة قرويّة، وصرنا نجاهر بإدانة المدينة، التي هي بدعة من بدع الفاسدين. وظهر من يخجل من الاعتراف من أنّه من بلباو، ويدّعي أنّه من قرية أحد أبويه أو أجداده، شرط أن تكون قرية مشهوداً لها بالأصالة والروح الباسكيّة.

مع ذلك كانت المدينة هي ما يشكّل قالب روحنا، وهي ما يبثّ فينا تلك الحميّة. كانت المدينة هي ما يحتضن نزعتنا الباسكية. كانت بلباو.

٦٤- وقعت محاولتان لاغتيال الملك ألفونسو الثاني عشر. حدثت الأولى عام ١٨٧٨، وكان منفذها الفوضوي (خوان أوليفا مونكاسي)، بينما حدثت الثانية عام ١٨٧٩، وكان منفذها الفوضوي (فرانثيسكو أوتيرو غونثاليث). لم يصب الملك بأذى في الحادثتين. أمّا الفوضويان فقد حوكما وأعدما.

٦٥- Sabino Arana (١٨٦٥-١٩٠٣). مفكر وزعيم من بلاد الباسك، وهو أبو النزعة القومية الباسكيّة.

-٦-

بلباو! مدينة قويّة طمّاحة، وليدة عناق البحر مع الجبال، مهد تجّار طامحين، سكن روحي، بلباو الحبيبة! إليكِ يتوجّه قلبي حين ينزل على الأرض، كما يتوجّه إلى قبلته. فأنتِ أنتِ من صنعته لي.

كم عانقتكِ بنظرة واحدة من أعالي (آرجاندا) وأنتِ مزروعة في عمق الوادي، متشبثة بنهرك الأم، وكم شعرتُ وأنا أتأمّلك بينابيع طفولتي تتفتّح لتغرق مياهها روحي بالخلود وبالسكينة!

وما أنتِ بمدينة دعة وهدوء، لا، لستِ أنتِ هكذا، يا بلباو، يا مدينتي العاصفة، فقد قارعتِ الإقطاع قروناً حتّى روّضتِ روحه كما روّضتِها اليوم؛ وذهبتِ للتجارة في كلّ أرض، وإلى كلّ أرض حملتِ حديد جبالك؛ ووهبتِ العالم كلّه أنظمة تجارتك، وعانيتِ حروباً أهليّة، وشققتِ طريقكِ بهمّة بين عوالم التجارة والصناعة.

فمن استطاع مثلكِ أن يخوض تلك المعارك؟ ومن استطاع كما فعلتِ أن يزرع البحار سفناً ويصارع البحر ويمنح سفن العالم ملاذاً وأمناً؟

أنتِ يا مدينتي بلباو. أرسلتِ أبناءك إلى أصقاع إسبانيا وأنحائها ليستكشفوا بطونها ويستخرجوا كنوزها. فعسى أن ينطلق منكِ مستكشفون ومنقبون يبحثون في أحشائها، أحشاء أرضنا، إسبانيا، عن كنوزنا الروحية الدفينة فيها.

بلباو، يا مدينتي. يجهلونك ويتجنون عليك. لا يحبّونك لأنّهم يخشونك. أنت ما زلت في نظرهم، في نظر الآخرين، اللغز والسرّ. لأنّكِ، وأنتِ المَقلّة في الكلام الطويلة في الفعل، لا تتكلّمين بل تعملين بصمت.

قرون من الصمت تلفّ حاضنة روحنا الباسكيّة، وتظنّ الأقوام المهذارة الثرثارة أننا لم نقل شيئاً لأنّنا صفرٌ مما يقال. نحن لم نشأ الكلام كي لا نتحدّث، كما يفعلون هم، عن ترّهات عابرة. كنّا نخجل من أن نفعل ذلك.

ذلك الخجل، ذلك الخجل الكبير الذي يزن ما يزن جبل من حديد يربض على لساننا القوي الصحيح. سيتحطّم ويتبخّر حين يمتلئ قلبنا بعظمة حياتنا ويزيح عن لساننا جبل الحديد الذي يجثم فوقه.

منكِ يا مدينتي، منكِ يا بلباو، سيتفجّر نبع الروح القوي، فأنتِ المدينة التي شغف أبناؤها بالعمل، وهاموا بالتجارة إلى حدّ الجنون.

حين كنّا أطفالاً في شوارعك نحظى بحمايتك ونتندّر على «أبناء المدينة» الذين يدققون في انتقاء كلماتهم ويتصنعون الكلام، ونقول لهم: هيّا، ليقال عنه إنّه...

هيّا، ليقال عنهم بأنّهم...! يجب أن نلوم هؤلاء الناس على أنّهم يتكلفون الكلمات ويؤلفونها تأليفاً فتُخدّر قلوبهم وتدغدغ مسامعهم.

ونحن، أبناؤك، لا لكي يقال لنا، بل لنفعل. كلماتنا، كلمات حديد، كلمات فعل لا كلمات قول.

قال صديقنا القديم (تيرسو دي مولينا) متحدثاً عن (بشكايا)، عن «بشكايتنا»، التي «من حديدها تستمتعُ إسبانيا بذهبها». وكان حقيقاً به أن يقول إنّ من كلماتنا تستمتع إسبانيا بروحها.

ما زالت أمامنا بحور علينا أن نمخرَ عبابها؛ وما زالت قدّامنا

مجاهل علينا أن نكتشفها، لنحمل لها تجارتنا ونجلب منها كلّ جديد بضاعة وموارد؛ ما زال أمامنا عالم بأكمله.

بلباو، يا مدينتي، أما آنَ لكِ أن تهبي أبناءك الآخرين شوقاً لك لا ينطفئ وحنيناً لأيّامك لا يرتَوي؟ أما آنَ لك أن تمنحيهم الشوق والحنين الذي منحتني إيّاه، أنا ابنك؟

لا تسمحي لكلام أقوام المسرح والمهرجانات أن يصمّ أسماعهم ولا أن يختم على قلوبهم بمعسول القول، فوراء ما يسمّونه «ملاحة» أكبرُ قباحة، وخلف ما يدعونه «نعمة» أعظم مصيبة ونقمة. أغرقي تلك الأصوات المغرية الغاوية بصدى مطارق حدّاديك وهم يضربون على السندان ليلينوا الحديد ويطوّعوه.

إلى الأمام، بلباو. فالمستقبل لك!

نتكلّم عن ميغيل دي أونامونو Miguel de Unamuno (١٨٦٤-١٩٣٦).

أديب ومفكّر وفيلسوف إسباني من بلاد الباسك.

أحدُ أعلام الفكر الإسباني بين الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين وإن تعدّى أثره وفكره حدود الزمان تلك.

هو أحد أعضاء ما عرف بجيل ٩٨، تلك المجموعة من المفكرين والأدباء الإسبان الذين هالهم، كما هال الإسبان جميعاً، أن تفقد إسبانيا هيبتها وتطرد على أيدي الأمريكان من آخر مستعمراتها في كوبا والفلبين متعثرة في ثوب الخزي ومسربلة سربال الهوان، منكسة الرايات مهزومة في جيشها وكبريائها وكرامتها. كانت تلك هي «النكبة» عند الإسبان. فكان دور الثقافة والمثقفين آنذاك هو تشخيص الحالة ومعرفة الداء والبحث عن العلاج والدواء.

ولد في بلباو Bilbao المدينة الباسكيّة المهمّة. وتوفي في سالامنكا، المدينة القشتالية التاريخيّة.

تعاطى شتّى فنون الكتابة: رواية وشعراً ومقالة ومسرحاً، وخاض غمار السياسة، فانتخب نائباً عن التجمع الجمهوري الاشتراكي، وكان هو من قرأ بيان إعلان الجمهورية الثانية في الرابع عشر من نيسان عام ١٩٣١ من على شرفة بناية البلدية في سالامنكا.

انتخب رئيساً مدى الحياة لجامعة سالامنكا العريقة حتّى أقيل من منصبه ذاك عام ١٩٣٦ بأمر من فرانكو، الذي كانت قواته قد انطلقت إلى أرجاء البلاد لإسقاط مؤسسات الجمهورية ومطاردة رجالاتها ورموزها في ما عرف بالحرب الأهلية، التي بدأت في السابع عشر من تموز من عام ١٩٣٦ وانتهت بعد ذلك الوقت بثلاث سنين.

ISBN 978-2843091476

Tanmia Bookstore
من ذاكرة الطفولة والشباب
108.00 LE 6.00 $
9782843091476